منازل الخلق في القرآن الكريم

د. بحر الدين عوض شقفه[1]

توطئة :

تبحث قضية الخلق في القرآن الكريم للتقرير على أنّ الخلق منازل ودرجات، منه ما هو أهون رتبةً وأيسر مؤونةً، ومنه ما هو أعلى رتبةً وأسبق زماناً وأكثر امتناعاً. بمعنى أنّ خلق الرحمن ليس على درجةٍ واحدة . فمن الخلق ما هو إبداعيّ تأصيليّ غير مسبوقٍ بمثال، ومنه ما هو تجميعيّ لأصولٍ سابقة عاشت في الأرض . ويمثّل المعاد القسم التجميعي التقليدي من أقسام الخلق، بينما يمثّل الإبداع القسم التأصيلي الحادث من لا شيء . إذ هو أرقى وأعلى منازل الخلق جميعاً سبقاً وشأناً . فإذا صحّ أنّ الخلق منازل وأنّه مقدور . كما هو في الواقع . على أعرقها وأعلاها وأبدعها، امتنع ألاّ تستجيب العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم الممزقة والشعور المتفرقة للقيام . بحمد الرحمن . لفصل القضاء .

لعلّه لم ينتبه لقضية الخلق بهذه المثابة . وأنّ أبدع ما قرأته عن حجية المعاد بأن يحاجّ له بأنّ القادر على البداءة قادر على الإعادة . ولم يطوّر المفسرون والباحثون مباحثهم في قضية البعث لتشمل أقطار القدرة في الكون جميعاً . فليست قضية الإعادة هي القضية الوحيدة التي تقابل قضية البداءة وحدها . وكأنّ الخلق كلّه محصور في قضيتي الإحياءة والإعادة بينما الخلق منازل وأبعاد وقضايا كثيرة . وينبغي النظر للإعادة والبعث من خلال التعرّف والإلمام التامّ بقضايا الخلق الأخرى. فإنّ أيّ نظرٍ للبعث أو المعاد كقوة وهي قوّة متواضعة ولا شكّ بمعزلٍ عن القوى العظمى وهي قوّة جبّارة ولا شك لا يخدم قضية المعاد جيداً ولا يضعها في مكانها الصحيح وموقعها المناسب أبداً . قضية المعاد ينبغي أن تناقش بصورةٍ أشمل وأعمّ وأوسع أيضاً .

ينبغي أن تُبحث قضية المعاد في إطارٍ يجمع أقسام الخلق الأخرى جميعاً ولا سيّما الكبرى منها . فإنّ البداءة التي يحتجّ بها على الدوام خلق وسط ولا يمثّل إلاّ

---

[1] أستاذ مشارك . كلية التربية – جامعة أفريقيا العالمية . السودان

المنازل الدنيا في مدارج القدرة العلية . فلا بأس بأن يحتجّ للإعادة بالبداءة ولكن مندوب إليه استفساح الأمر فينظر للإعادة على أنّها عبارة عن حلقة واحدة وصغيرة في النظام العام للخلق ولا تدرك طبيعتها جيداً إلاّ بالقياس إلى جميع حلقات الخلق الأخرى.

لقد اعتاد الناس بأن يحتجوا بأنّ الذي بدأ الخلق أول مرة لقادر على الإعادة كما قال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس:٧٨، ٧٩)
فقد يفهم الناس بأنّ الذي أنشأ العظام أوّل مرة لقادر على إعادتها كما هو في ظاهر السياق القرآني وكما في سائر الآيات الأخرى المشابهة . ولكن ينبغي الالتفات إلى نهاية الآية وهي قوله تعالى : (وهو بكلّ خلق عليم) فهي إشارة لمنازل ومنازل . يعني أنّ هناك بعداً آخر من وراء النشأة الأولى للإنسان . وهذا البعد هو الذي أسميته الخلق التأصيلي وهو يتعدَّى إنشاء الإنسان وبدء الإنسان وحتى بدء الأرض أو الطين الذي خلق منه الإنسان . بل يتعدَّى حدود خلق الأرض والسماء إلى مخلوق كان قبل خلق الأرض والسماء وقبل العرش العظيم لينتهي إلى المخلوق الجوهر الذي خلق من العدم . وذلك هو الخلق التأصيلي المطّهر الصّادر من لا شيء ثمّ صار مادة خلقت منها جميع الأشياء . فالاحتجاج المطروح على إمكان المعاد هو الاحتجاج بالنشأة الأولى أو البداءة الأولى فقط، غير أنّ هنالك سهوباً ومهامه وفلوات وبوناً شاسعاً بين ما يحتجّ به وبين ما لم ينظّم للاحتجاج به بعد .

فإذا كنّا نحاجّ الكفار بأن الذي خلق الإنسان أوّل مرة قادر على إعادته لأنّ الخلق الأول أصعب من الخلق الآخر فما بالك بالخلق التأصيلي المطهر الناشئ عن لا شيء حيث أنّ البون بينه وبين النشأة الأولى للإنسان أكبر من المسافة التي بين نشأتيه الأولى والثانية . ومن ثمّ فإنه سبحانه وتعالى عندما يصوّر المعاد بحياة النبات التصوير البيئي فإنّما يقيس المعاد بالمنزلة المماثلة له فقط دون المنازل الأخرى العليا غير المطاولة .

فالمباحثة حول أقطار القدرة الباهرة غير المتصورة لله سبحانه وتعالى تأتي تأييداً لدور التصوير البيئي للمعاد في القرآن الكريم ولله المثل الأعلى . وما أمر الخلق التجميعي إلاّ شيء يسير متواضع بالقياس إلى الخلق التأصيلي غير المتصوّر الذي تكل في إدراكه الأفهام وترتبك العقول وتنهار .

ولقد أشار القرآن بأنّ هناك منزلاً ما من الخلق هو أكبر من خلق الإنسان . فقال تعالى : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (غافر:٥٧) . يعني أنّ خلق السموات والأرض، أيّ هذا الخلق الفلكي، لأكبر من خلق الناس الحيوي وأنّ خلق الناس الحيوي لأكبر من خلقهم الثانوي الإعادي والذي هو في الطريق . فهذه المباحثة تبحث في مجموع منازل الخلق وأقسامه التي يفصح عنها الكتاب الحكيم في مكان دون مكان، ويقول ببعضها المفسّر أو المحدث، ولكن لا تجد هذه المنازل مجموعة بعضها إلى بعض في نسقٍ علميٍّ ومنهجيٍّ ملتئم يستفاد منه في مجال الدراسة والبحث العلميّ . هذا، ولقد توافر لي من مطالعتي في الكتاب المبين ثلاثة منازل رئيسية للخلق في القرآن ترتب على النحو التالي بحسب القدر والخطر :

١- خلق تأصيلي مطهّر من لا شيء .
٢- خلق تحويلي من شيء .
٣- خلق تجميعي من أصول .

وبهذه الطريقة تنسجم المقارنة وتتضّح المباينة بجلاء بين منزلٍ وآخر أو بين مرتبةٍ وأخرى . وبهذه الطريقة أيضاً تنسجم أنواع القدرة السنية التي يشير إليها القرآن من موضعٍ لآخر وتتضّح المباينة بجلاء بين قدرةٍ وأخرى من قدرات المولى عزّ وجلّ التي يلوّح بها القرآن من موضعٍ لآخر. فقد يفصح القرآن في آيةٍ من الآيات حيث يشاء أن يقرّر حكماً بأنّ ذلك على الله يسير. ومراتٍ يلوّح بأنّ الله على كلّ شيءٍ قدير . وهناك فارقٌ جليٌ وبونٌ واسعٌ بين تيسير الشيء على الله وبين مقدرته على كلّ شيء .

يُؤمل من هذه الدراسة أن تأتي بذخيرةٍ وافيةٍ وكافيةٍ وبمددٍ من الأدلّة بعيدة المدى لتأييد ودعم دليل الماء الذي يساق لتمثيل إخراج الموتى وتشبيهه بإخراج النبات لكون الماء من أتمّ النعم وأجلّها وأحسّها أثراً في حياة الناس. فقد صوّر القرآن المعاد تصويراً بيئياً أجمل ما يكون التصوير .. تصويراً قوياً وبليغاً وصادقاً يأخذ بمجامع النّفس ويبعث على التأمّل والتفكير . قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الأعراف:٥٧) يُؤمل أن تأتي هذه المباحثة بأدلة البناء الشامل لعقيدة المعاد التي يصوّرها السياق القرآني تصويراً بيئياً لدحض العناد . وتمثّل منازل الخلق في القرآن، في الحقيقة، جزءً من مرافعة قرآن المعاد في محاكمة قضية القيامة في القرآن من منظورٍ بيئي . ترتّب منازل الخلق في القرآن على النحو التالي :

أ- خلق تأصيلي طهور من لا شيء .
ب- خلق تحويلي فلكي من شيء .
ج-خلق تحويلي حيوي من شيء .
د- خلق تجميعي تقليدي من أصول .

أ- خلق تأصيلي من لا شيء :

يعرف الخلق بأنّه إيجاد الشيء على تقدير واستواء . يقال خلق الحذاء إذا قدّرها وسوّاها على قياس . أمّا فطر فيعني ابتداء الشيء . يقال فطر البئر بمعنى أنّه أوّل من ابتدأها وأوجدها . أمّا ابتدع فيعني إيجاد الشيء من لا شيء . إذ لا معنى للابتداع إن كان عن شيءٍ موجود . جاء في كتاب بدء الخلق من صحيح الإمام البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ε : (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء وخلق السموات والأرض)[1] . يفهم من الحديث الشريف أنّه كان الله سبحانه ولم يكن في الوجود

[1] صحيح البخاري ٣/ ٣٠١٩، طبعة دار ابن كثير، تحقيق مصطفى ديب البُغا .

غيره، يعني كلّ عدم إلاّ وجهه ثمّ اقتضت حكمته ومشيئته أن يخلق العرش ويجعله على الماء . فكأنّ الخلق بدأ بالماء ثمّ العرش .

فإذا كان العرش صُنع من ماء فيكون الماء الجوهر الذي صدر ت عنه جميع الخلائق، لطيفها وكثيفها، وأنّ الله سبحانه وتعالى ابتدعه ابتداعاً إيجاداً من عدم أي من لا شيء . فيكون الماء أوّل موجودٍ مسبوقٍ بعدم وغير مسبوقٍ بشيء غيره . وإن لم يكن العرش صادراً عنه وكان مساوقاً له في النشأة فيكون مخترعاً آخر من غير جنس الماء . وبذلك يكون الماء والعرش أوّل مخترعين يخرجان من الغيب إلى الوجود ويسجّلان بذرة الكون في العالم.

وإذا كان ذلك كذلك فيكون الموجودان ذوي طبائع مختلفة كأن كان العرش وجوداً لطيفاً لطف عن الأبصار فلا نعلم عنه شيئاً إلاّ عن طريق السّمع أي النقل بينما كان الماء وجوداً كثيفاً تتعلّق به جميع الحواس ولا تخطئه الأيدي والأبصار .

وبذلك اتّخذ المبدعان الجديدان مسارين مختلفين . فكان الأوّل خارجاً عن مجال الدراسة والعلم التجريبيّ والبحث، بينما الثاني أي الماء صار مادة الخلق جميعاً، مادية وروحانية كما يدلّ الأثر .

وبهذا فسوف يُتابع تطوّرات الخلق لكونه صالحاً للبحث وواقعاً تحت التجربة للاعتبار وآيةً على مبدعه ومخترعه من العدم . وحديث البخاري تسانده آية قرآنية في نفس المعنى وهي قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (هود:٧) وما جاء في تفسير هذه الآية يعزّز ما تقرّر آنفاً . وفحوى ما جاء من التفاسير لقوله تعالى: (وكان عرشه على الماء) أي ما كان تحته خلق قبل خلق السموات وارتفاعه فوقها إلاّ الماء. وفيه دليلٌ على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض .

وقال أبوبكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات على قوله ε "كان الله ولم يكن شيء قبله" يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما .

وقوله : "وكان عرشه على الماء" يعني وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثمّ كتب في الذكر كلّ شيء .

ويرى، أيضاً، قومٌ من الفلاسفة أنّ الماء أي الجوهر السائل أصل كلّ الأجسام كثيفها من تكاثفه ولطيفها من شفائفه . ومعنى ذلك أنّ الله خلق في الفضاء ماءً حمله على متن ريح فاستقلّ عليها حتى صارت له مكاناً ثمّ خلق فوق ذلك الريح ريحاً أخرى سلّطها عليه فموّجته تمويجاً شديداً حتى ارتفع فخلق منه الأجرام العليا والنيّرات وسائر السيّارات .

وبهذا نصل إلى أنّ الماء هو أوّل منزلة من منازل الخلق القرآني . وهذا يعني أنّه ابتدع ابتداعاً واخترع اختراعاً من قبل البارئ جلّ وعلا الذي أنشأه إنشاءً وابتدأه ابتداءاً، بلا روية، أي فكر، آجالها ولا تجربة استفادها من أحدٍ غيره . فكان الفعل دليلاً على قوّةٍ وكانت القوّة برهاناً على وجود الله.

وإذا كان في الماضي يعدّ عنصراً فقد فلق إلى عنصرين آخرين هما الأكسجين والهيدروجين اللذان يملآن بعض الفضاء ويشاركان في تكوين الأجرام وسير الحياة في الأرض . فمن أين جاء هذان العنصران؟ ومن أي شيء اشتقا؟ ومن أي شيء تمّ استنسالهما؟ إلى آخر الأسئلة الحائرة. هنا يحتار العقل ويرتبك الذهن أمام إبداعٍ خارقٍ وصنعٍ بديع .

وبهذا يحتلّ الخلق التأصيلي المنزلة الأولى والرتبة العليا من بين صنائع الرحمن . إذ هو الاختراع الأصعب في العقل البشري غير المتخيّل وغير المتصوّر الذي لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل في كافة مخترعات البشر . لكونه الصنع الأطهر فيقال اخترع فلان الآلة البخارية أو جهاز المذياع أو التلفاز مثلاً . لكن في الحقيقة فإنّ صانع هذه الأشياء قام بمعالجة المواد الأولية لزيادة قيمتها النفعية ولجعلها أكثر ملاءمةً في إشباع

حاجات الإنسان ورغباته . معنى ذلك أنّ الإنسان يقف حائراً وعاجزاً عن إيجاد مثقال ذرةٍ من مادة (جماد) . ولعلّ حائراً يسأل بهذه المناسبة قائلاً :

هل خلق الذباب مستطاع من دون الله؟ :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج:٧٣،٧٤). فالتحدّي الحكيم في خلق الذباب قائمٌ على منزلتين من منازل الخلق هما : الخلق التأصيلي، الذي نحن بصدده الآن، والخلق التحويلي الحيوي الذي سنعالجه فيما بعد. وواضحٌ أنّ الجانب المتعلق بالخلق التأصيلي عسير سالب للمحاكاة .

بمعنى أنّ إيجاد المادة الخام اللازمة لصناعة ذبابة، كائنة ما كانت الذبابة، أعسر وأشقّ من مجرّد محاولة صنع الذبابة نفسها .

فقد آخذ عجيناً من طحين البرّ أحاول أن أصنع منه ذبابة ما . لكن من أين لي أن أخترع مادة العجين أو تناولها من وراء ملكوت الله؟ بل من أين وكيف أحصل على جرام واحد خام لازم لصناعة ذبابة واحدة صغيرة أو شرنقة بعوضة .

لقد سمعنا بالإنسان الآلي ولعلنا نسمع في المستقبل بالذباب الآلي . . والبعوض الآلي. وعلى الرغم من ذلك سيظلّ التحدي قائماً لأنّ مواد الإنسان الآلي والثعلب الآلي والكمبيوتر مخلوقةٌ لله، ولم يخترعها الإنسان سواء عن طريق العلم أو السّحر وبطريقةٍ مشروعةٍ أو غير مشروعة . فللّه ما في السموات وما في الأرض جميعاً، ملكاً وعبيداً وتسخيراً ومواد أوليةً .. إلخ . وهكذا ترى استغراق الخلق التأصيلي في الإعراق .. وترى ضعفاً هزيلاً للطالب يكون إماماً لضعف المطلوب الحقير . خلق الذباب معلوم وأمّا خلق المادة فمجهول . إذاً لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .

ذلك أنّ خلق الذباب إعجازٌ إلهيٌ غير مستطاعٍ للإنسان وليس من المستحيلات العقلية بحالٍ من الأحوال . ذلك أنّ التّحدّي لا يكون إلاّ في الممكن

الذي لا يكون للإنسان . وذلك أيضاً، أنّ الإعجاز لا يتعلّق إلاّ بالممكنات وليس بالمستحيلات بحالٍ من الأحوال.بالإضافة إلى هذه الصعوبات التي يواجهها الإنسان في خلق الذبابة، فإنّه سوف يواجه بصعوباتٍ أخرى خاصة بالملكية . ذلك أنّ الإنسان، كما ذكرت، لا يملك من لدنه موادَّ أولية كافيةً لخلق ذبابة . إذ أنّه لا يملك زنة لفافة النواة . أي لا يملك قطميراً كما جاء في سورة فاطر. ذلك أنّه لا يملك ولو جزءً من مليار جزءٍ من قطميرٍ أو ما يساويه من مواد أخرى . أي لا يملك ملكاً حراً من شيءٍ إلاّ صفراً أو أصفاراً . والصّفر عدمٌ غير كافٍ لصناعة جناح ذبابة فضلاً عن ذبابةٍ كاملة .

لعلّ خلق الإنسان للذبابة ليس من المستحيلات العقلية فنياً ولا سيّما أمام التكنولوجيا الحديثة. ولكن إذا كان لا يملك مواداً أوليةً لخلقها خرج خلقها من الممكن فنياً ودخل في حيّز المستحيل لانتفاء شرط الملكية والسيادة . ويتحوّل خلق الذباب من الممكن عقلاً إلى المستحيل أبداً . وناهيك عن صعوبات الرّوح والهداية والوراثة .... إلخ .

وهكذا تتجلّى المباينة البعيدة بين المقلوب عنه وهو العدم والمقلوب إليه وهو الماء. بمعنى أنّه لا مقلوب عنه البتّة . وما ذكر من استحالة خلق الذباب إلاّ توطئةً لتفهم خلق الماء أي خلق المادة من لا مادة . بمعنى أنّه لا مقلوب عنه البتّة . وبهذا يكون خلق الماء ما يستقلّون إليه سائر منازل الخلق.

(ب) خلق تحويليّ فلكي :

يُقصد بالخلق التحويلي الفلكي : استخدام المادة الخام وتحويلها من حالتها البدائية الأولية إلى حالةٍ أو هيئةٍ معقدةٍ وجديدةٍ وفق مقتضيات المشيئة الإلهية . وهذا الصنف من الخلق يماثل في صورته العامة صناعة البشر التحويلية التي يتمّ بها تحويل مادةٍ أو مواد من حالتها الأصلية إلى حالةٍ أو هيئةٍ جديدةٍ تصبح معها أكثر إشباعاً لحاجات الإنسان ورغباته كأن يحوّل القطن الخام إلى منسوجاتٍ قطنية والحديد الخام إلى مكائن وآلاتٍ أو إلى صلب ...إلخ . فالقطن مقلوبٌ عنه والمنسوجات

مقلوبٌ إليها . وبهذا يكون المقصود بالخلق التحويلي الفلكي خلق السموات والأرض من الماء .

إذ الماء الأسّ الذي بني عليه أجرام الكون كلّه كما تؤكّد ذلك كلّ النّظريات العلمية والمأثورات السمعية في العالم . فلو كان لشيءٍ ما أن يُعبد من دون الله، كان حقّ الماء على النّاس أن يتّخذوه إلهاً . إذ هو أولى بالربوبية من الشّمس والقمر والكواكب والنّجوم، أولى من ودٍّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر . بل أولى من رع وأبوللو وعزى وهُبل، أولى من النّار والحيوان والحجارة أوثاناً وطواطم . بل عبادة الماء أولى من عبادة الشّمس . وأسف الفكر البشري إسفافاً بليداً وهدم المنطق هدماً شديداً عبر التاريخ عندما اتّخذ من الملكوت البيئي ما لا ينفع نفع الماء، ولا يضرّ ضرر الماء، ولا يسمو سمو الماء، إلهاً من دونه .

ولو أنّ مخلوقاً يؤله لم تكن لسواك مرتبة الألوهة تخلق

قال تعالى : (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (فصلت:٩-١٢) . فَحْوَى الآيات أنّ العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وأنّه تعالى أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأيبس الماء فجعله أرضاً ثمّ خلق السماء من الدخان المرتفع . ومعنى هذا، وكما جاء في خطبة الإمام علي رضي الله عنه، أنّ الله خلق في الفضاء ماءً حمله على متن ريحٍ فاستقلّ عليه حتى صارت مكاناً له، ثمّ خلق فوق ذلك ريحاً أخرى سلّطها عليه فموّجتها تمويجاً شديداً حتى ارتفع فخلق منه الأجرام العليا .

وتجمع النظريات العلمية والفلسفية جميعاً، قديمها وحديثها، بأنّ الماء أصل الكون، وأهمّ عناصر الماء المرصود في المناظير الفلكية الهيدروجين، حيث يؤكدّون أنّ

الكون مخلوقٌ من سدم وهي عبارة عن سحائب رقيقة وغازات عائمة في الفضاء. وبهذا يكون الماء المقلوب عنه والسموات والأرض المقلوب إليها .

ولا شكّ أنّ هذه الأجرام الجسام السّابحة في فضاء الكون أكبر وأصعب وأشقّ من خلق النّاس. لأنّها بحاجةٍ إلى كمياتٍ هائلةٍ من خام الماء للتصنيع بالإضافة إلى المكان الذي تستقرّ عليه حيث تتحيّز حيّزاً واسعاً وعميقاً كأنّما لا نهاية له .

وفوق ذلك إنّ عالم السموات في مددٍ وتوسّعٍ جارٍ كما رصده علماء الفلك وكأنّه تفسير لقوله تعالى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات:٤٧) ومن آيات الله في عالم السّموات استواء الأجرام الضّخام في الفضاء على غير عمدٍ تُرى . وإمساكهنّ من أن تهوي إلى الأرض إلاّ بأمر الرحمن مترئفاً ومترحماً على خلقه . أو مسكهنّ من أن تزولا من ساحة الوجود . فإمساك هذه الأجرام الضّخام من الزوال لأشدّ كلفةً ومؤونةً من حفظ النّاس وسيرهم أسوياء على صراطٍ مستقيم.

فخلق الإنسان، ولسوف نتحدّث عنه إن شاء الله، لا يساوي شيئاً بالقياس إلى خلق السموات والأرض المهول . وسواء المقلوب عنه أو المقلوب إليه في غاية التعاظم . وهناك عدّة سور في القرآن الكريم بُدئت بالحمد لله . إذ هو أهل الثناء الجميل . قال تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ، هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) (الأنعام:١، ٢) . خصّ السموات والأرض بالذكر أولاً لأنّهما أعظم المخلوقات للنّاظرين ثمّ قفاهما بخلق الإنسان من طين الذي هو بعض الأرض .

يقدّم خلق السموات والأرض على الخلق الحيوي في آية البقرة : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:١٦٤) . والحقيقة ألاّ مقارنة بين الخلق الفلكي للسموات والخلق الحيوي

للإنسان وغيره من الحيوانات . (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (يس:٨١) . توضّح الآية الأخيرة بجلاء أنّ منزلة الخلق التحويلي الفلكي أعظم بكثيرٍ من منزلة الخلق التحويلي الحيوي . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قادراً على الخلق الفلكي فهو على الحيوي أقدر حيث أنّ البوْن شاسع . فعلى الرّغم من أنّ الخلقين الفلكي والحيوي كليهما من ماء إلاّ أنّ الخلق الحيوي مزدوج التخلّق فبعضه من ماء وبعضه من تراب . وبهذا يكون الخلق الفلكي مقدّماً على الحيوي في الزمان والرّتبة وفاضلاً بينما يصبح الأخير مفضولاً عليه . قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون:١٢) . أي من خلاصةٍ سُلّت من كدر الطين . ومعنى ذلك أنّ الإنسان خلق من عناصر شتّى : مثل الكربون، الأكسجين، الهيدروجين، الفسفور، الكبريت، الأزوت، الكالسيوم، البوتاسيوم، الحديد، النّحاس ....إلخ من العناصر التي تتكوّن من الأرض . وهكذا يثبت لنا تفاوت المخلوقات في مدارج الخلق .

(ج) خلق تحويلي حيوي من شيء :

وهذا صنو الخلق الفلكي حيث أنّ كليهما خلق تحويلي منقلب عن شيء آخر سواه . إلاّ أنّ الحيوي يأتي في الرتبة الدنيا بالنسبة لصنوه الآخر، كما رأينا في المباحثة، فالأخير يخصّ الحيوان بينما الخلق الفلكي يختصّ بالموات الذي منه الحيوان أيضاً .

قال تعالى : (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) (النور:٤٤) وتقليب الليل والنهار فيه إشارة إلى كون السموات والأرض لينتقل إلى آية الخلق الحيوي فيقول : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (النور:٤٥) . وجاء في تفسير الآية أنّ أجناس الحيوان كلّها مخلوقة من هذا الجنس، جنس الماء، وذلك لأنّه هو الأصل وإن تخللت بينه وبين هذه الأجناس وسائط . أي أنّ الماء هو الأصل وإن لم يخلق بعض الأجناس من الماء مباشرة. ولكنّها خلقت من مواد خلقت من ماء . وقالوا خلق الملائكة من ريحٍ مخلوقة من الماء والجنّ

من نار خُلقت منه وآدم من تراب مخلوق من الماء أيضاً . وبهذا تصبح كلّ الأجناس الحية مخلوقة من الماء كثيفها ولطيفها على حدٍّ سواء . يعني أنّه سبحانه وتعالى خلق كلّ الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء . فكلّ أجناس الخلق التحويلي الحيوي صادرة عن الماء مباشرةً أو عن طريق وسائط، كما أوضحت آنفاً في شرح الآية السابقة.

ومعنى ذلك أنّ هنالك تحويلاً من شيءٍ إلى شيءٍ آخر أكثر تعقيداً وتشكيلاً وفق مشيئة الله سبحانه وتعالى القاهر فوق عباده . فإذا كانت جميع هذه الأجناس الحية صادرة عن الماء معنى ذلك أنّها منقلبة عن مادة الماء الخام الابتدائي إلى صورها البديعة وأشكالها العجيبة وخصائصها المتنوعة إذ هي صنع الله الذي أتقن كلّ شيء وأعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى . فلو قست أقبح وأذمّ وأخسّ وأذلّ شيئ من صنع الله إلى أجمل وأبدع وأبهى وأرفع شيئ من صنائع البشر، لوجدت صنع الله الأتقن شيئاً .

وعن النّبي ε أنّه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح . ورُوي أنّه ε سأل جبريل عليه السلام أن يترآى له في صورته فغشي على النّبي ε ثمّ أفاق فقال سبحان الله ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا . فقال جبريل عليه السلام فكيف إذا رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحاً، جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله . (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فاطر:١) ويزيد في الخلق ما يشاء من صوتٍ حسن وصورةٍ حسنة، من طول قامةٍ واعتدال صورةٍ وتمامٍ في الأعضاء وقوّةٍ في البطش وحصافةٍ في العقل وجزالةٍ في الرأي وجرأةٍ في القلب، وسماحةٍ في النّفس وذلاقةٍ في اللسان ولباقةٍ في التكلّم وحسن تأنٍّ في مزاولة الأمور . وما أشبه ذلك ممّا لا يحيط به الوصف[1]. قال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) (الذاريات:٢٠) وفي أنفسكم في حال ابتدائها وتنقّلها من حالٍ إلى

[1] الزمخشري : الكشّاف

حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصّت به من أصناف المعاني وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات السّاطعة والبيّنات القاطعة على حكمة المدبّر . ودع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والثني (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون:١٤)[١] .

وهكذا تتحوّل مادة الماء الخام من صورتها الابتدائية المهينة فتنقلب إلى شيءٍ عجيب آخر حين تصنع هذه المادة على عين الصانع وعنايته . فأين المنقلب عنه إلى المنقلب إليه والمتحوّل عنه من المتحوّل إليه؟ ولكن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فهذه منزلة الغلاف الحيوي في الأرض. وإن شئت أسميتها نشأة الحياة الأولى في المادة الصّماء التي هي مادة التراب المتحوّلة عن الماء أو المادتين المتظاهرتين معاً . وهذا الغلاف الحيوي هو محلّ التكريم إذ هو مهبط الملائكة ومقرّ البشر ودار التكليف والمختبر . قال تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء:٧٠) فإذا كان الغلاف الحيوي هذا مخلوقاً من ماء مباشرةً دون وسيط فهو مخلوق من شيء مخلوق من عدم .

(د) خلق تجميعي تقليدي من أصول :

نعيد ما ذكرناه بأنّ مستويات الخلق تقع على أربع منازل حسب الترتيب التنازلي من الصعب الشّاق إلى البسيط الأهون أي من الأعظم إلى الأهون :

١- خلق تأصيلي من لا شيء في درجة (أعظم)
٢- خلق تحويلي فلكي من لا شيء في درجة (عظيم)
٣- خلق تحويلي حيوي من شيء في درجة (هيّن)

---

[١] الزمخشري : الكشّاف، مصدر سابق، ص ٢٩

٤ – خلق تجميعي تقليدي من أصول في درجة (أهون)

ويُقصد بالخلق التجميعي إعادة الأموات وتطريتهم بالحياة مرةً أخرى بعد ما فقدوها بحلول مصيبة الموت بأجسادهم . فانتقلوا من ظاهر الأرض إلى باطنها فاختزنوا فيها إلى يوم الدين (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ، إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) (ق:٤٢–٤٤) وسيخاطب إسرافيل عليه السلام جماهير العظام البالية وحشود الأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة "إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء" . يخاطبهم بشدّة أو بنفخةٍ مروّعةٍ ومفزعة أي يطلق في الموتى صيحةٌ مدوّية بالأمر الإلهيّ القاهر والإرادة الزاجرة (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) (النازعات:١٤) والله على كلّ شيءٍ قدير، إذ القدرة على أداء الشيء أو صعوبة أدائه ناتجان من علاقة الشّيء بالشّيء، كعلاقة الإنسان بالأرض التي تقلّه إذ يتعذّر عليه حملها وهو عليها . وكتفاوت النّاس في حمل ثقل ما بين المقدرة عليه والعجز عنه حسب قواهم تجاه الثقل . ولما كان البارئ، سبحانه وتعالى، سابقاً في الوجود لكلّ شيء، خلا من رباطٍ ماديٍّ فلم يتعلّق به شيء . فلم يكن له كفؤاً أحد لانتفاء الأحد كلياً مكافئاً أو غير مكافئ . وإذا لم يكن إلاّ شيئ واحد خالص، تعالى الشيء الواحد الخالص أن يلحق به صعوبة لانتفاء مصدر الصعوبة كلية، وإذا لم تكن الصعوبة حلّت القدرة محلّ الصعوبة . فكان الإله الواحد قادراً على كلّ الأشياء لتعلّق قدرته بالمخلوقات فوق تعلّق قدرة المخلوق بالمخلوق .

فالصعوبة مصدرها من أنّ الله خلق الأشياء الكثيرة المتنوعة الطبائع أجساماً وأعراضاً، فنشأت الصعوبة في تأليفها أو الحدّ من أسرارها وفي تعاملها بعضها مع بعض . ولكنّه لما كان غير هذا الكون الحادث، مادة الصعوبات ومحلّها، كان منزهاً، بمنأى عن عالم الصّعوبات والإشكالات . وقد وسع كلّ شيءٍ علماً . فالصعوبة من بوابة الخلق منقطعة لا تصعد إليه، وبالعكس تصدر منه إليهم إذ تحيّرت الأوهام في معرفة كنهه ودهشت الفطن (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ) (الأنعام:١٠٣) . فباسم من هذا صفته يخاطب الموتى للإهطاع للفصل في علاقاتهم المستعصية السابقة وصلاتهم الماضية بالقسط وفق الميزان الذي وضع لهم من قبل. فيستجيبون بحمده للأمر القاهر مهطعين إلى الدّاع لا يتخلّف منهم أحد في ورود اليوم العسر .

هذه عقيدة البعث التي ينكرها بعض السفهاء ويثبتها العقلاء في كلّ ملّة ودين أو علم صحيح أو فطرة سليمة .

يقدّر عدد أصحاب الديانات السماوية ٤٩,٦% من سكان العالم حيث يشكّل البعث جزءً من عقيدتهم بالإضافة لأصحاب بعض الدّيانات المثالية كالكنفوشيوسية الصينية التي تؤمن بإلهٍ واحدٍ وقادر .

فالإيمان بالجزاء ضرورة توازنية لاستقامة الفضيلة . فما بالهم لا يؤمنون بالبعث إن هو إلاّ صورة من صور التجديد للأشياء البالية . إنّ أغلب سكان الكرة الأرضية يؤمنون بالبعث لأنّه من مقتضيات الجزاء والعالم الآخر المركوز في الفطرة . وربَّ سائلٍ : هل هناك شهادة تجريبية تثبت حياة بعد الموت ؟

إنّ أوّل دليل على الحياة الثانية حياتنا الأولى في حدّ ذاتها . فالذين ينكرون الحياة الثانية يقرّون، بداهةً، الحياة الأولى . والحياة التي ظهرت مرةً واحدة، كيف لا يمكن إعادتها مرةً أخرى؟ هذه التجربة التي نعيشها اليوم، كيف يستحيل حدوثها مرةً أخرى؟ ومن حقّ القياس أن يشبّه محلّ الخلاف بمحلّ الوفاق . يعني أنّ الحياتين الأولى والثانية لما كانتا متماثلتين تماماً فلو صدقت إحداهما وكذبت الأخرى لكان ذلك إيقاعاً، للتفرقة بين المثلين المتماثلين في جميع الوجوه، غير جائز وغير لائق بحكمة الله وعلمه المحيط وقدرته المطلقة .

فقبول النشأة الأولى واستبعاد الثانية كقبول الثانية واستبعاد الأولى لما كانتا من دقة المماثلة بمكان أنّه لا يجوز تخصيص أحد المثلين بالإقرار والآخر بالرفّض . وعلى

سبيل الفرض لو أُخبر الإنسان قبل أن يُخلق حين أُشهد على نفسه بأنّه سيواجه حياةً أولى يعقبها ممات ثمّ أخرى لا يعقبها الممات، فكيف يجوز البداءة وينكر الإعادة أو العكس مع كونهما في حكم العدمية والغيب إليه سيان؟ لا شيء أكثر عداءً للمنطق والعقل من أن نسلّم بوقوع حادثٍ في الحال وننكره في قابل الزمن .

واضّطر جميع العلماء الذين حاولوا تفسير أمر الكون والحياة بطريقةٍ علمية طبيعيةٍ أن يسلّموا بأنّه لو هُيّئت نفس الأحوال التي ساعدت على خلق الحياة الأولى فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرةً أخرى . إنّ إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى، نظرياً، من إمكان الحياة الأولى، التي وقعت فعلاً . وأيّ شيء نسلّم به أنّه خلق الحياة، مهما كان هذا الخالق، فلابدّ لنا من الإقرار بصفةٍ بديهيةٍ بأنّ ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد إعادة نفس الحوادث التي أنشأها في المرّة الأولى، ولابدّ لنا من الاعتراف، اللهم إلاّ إذا أنكرنا الحياة الأولى الموجودة الآن .. فنحن نفقد جميع الأسس التي قد تبنى عليها دعائم إنكارنا للحياة الأخرى، عندما نسلّم بوجود الحياة الأولى[1] .

وأسميت هذا النوع من الخلق خلقاً تجميعياً تقليدياً لأنّه عبارة عن لمٍّ لأطراف كانت ثمّ اخترمها الموت والفناء فوزعتها يد البلى هنا وهناك . فلم الأشكال وتجميعها من هنا وهناك ليس بدعاً في عالمنا المعاصر .

فقد أدّى التخصّص الصناعي إلى نوعٍ من الارتباط والتعاون بين الدول كأن ينهض كلّ قطر بصناعة قطعٍ معينة من الصناعات الهندسية ثمّ تجمع هذه القطع لإخراج الصنعة المطلوبة تامة الصنع كالتعاون الموجود الآن بين دول السوق الأوربية المشتركة أو الصّناعات الإلكترونية اليابانية التي تجمع في ماليزيا أو كوريا أو غيرهما أو كما تقوم الولايات المتحدة الأميركية بصنع أجزاء طائراتها المدنية في الولايات الغربية وبعضها في الولايات الشرقية من البلاد حسب المناخ ثمّ تجمعه . ودأبت بعض الأقطار

[1] وحيد الدين خان : الإسلام يتحدّى، دار البحوث العلمية ١٩٨٣م، ص ١٠١ .

النامية على استيراد قطع السيّارات وتركيبها داخل البلاد . وهذا التجميع، بالطبع، أهون وأيسر من التقنية الأصلية . وهذا التخليق تقليدي لأنّه عبارة عن تأليف لأصولٍ حيويةٍ سادت ثمّ بادت . وليس ابتداعاً ولا اختراعاً ولا تحويلاً لشيءٍ ما إلى شيءٍ آخر . فهو عبارة عن (الصيانة) التي لا ترقى لدرجة الصناعة .

يصنّف القرآن في معالجة قضايا البعث إلى قسمين : نظريّ وماديّ . وهذا القسم الأخير، أي الماديّ، سيناقش في محلّه أي في موقفٍ آخر[1] . فها نحن الآن أمام ثلاثة مستويات من القسم الأول من آيات القرآن في تأييد وحتمية الخلق التجميعي:

المستوى الأول :

قال تعالى في ثلاث آياتٍ متشابهة فيها كثير من التوافق :

١- (وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم:٢٧)

٢- (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (العنكبوت:١٩)

٣- (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت:٢٠)

يؤكّد سبحانه وتعالى في الآية الأولى بأنّ الإعادة أهون عليه من البداءة وفي الثانية أنّه عليه يسير بينما يلوّح في الثالثة بأنّه على كلّ شيءٍ قدير . لا يتعاظمه ولا يُعجزه شيء بالقياس على البداءة أهون وأيسر ولا سيّما أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير. كأنّنا ننصبّ في الأرض صبّاً من هيّنٍ إلى ما لا يكلّف أدنى جهد . لا يحقّ ولا يجوز للإنسان إنكار المعاد بأيّ وجهٍ من الوجوه . فهو لم يكن دائراً في الأرض، مع الزمان،

[1] انظر مجلة دراسات دعوية، العدد ٦ لعام ٢٠٠٣م، مركز الدعوة وتنمية المجتمع . جامعة أفريقيا العالمية . الخرطوم .

فدار . إذ لم يكن موجوداً ولا مشهوداً قبل مليون عامٍ من الزمان، ثمّ كان، ومن ثمّ بدأت دورته الحيوية في الأرض وفي الزمان معاً .

دورة الإنسان الحيوية في الأرض :

تنقسم حركة الإنسان في الأرض من جهة الماضي والمستقبل إلى قسمين :

أ– حركته في الزمن من جهة الماضي وتشمل :

١– ميتته ما قبل الإماتة الأولى . وهي إماتة معنوية أو مجازية .

٢– إحياءه الأول .

٣– إماتته الأولى .

ب– حركته في الزمن من جهة المستقبل وتشمل :

إحياءه الثاني :

وهو إحياء المعاد لتقرير المصير الكبير والأخير، ويبقى الإنسان حياً لنفسه أو عليها بلا أمد . قال تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (البقرة:٢٨) وقال تعالى على لسان المدحضين : (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) (غافر:١١) ولقد تحقّقت كلّ هذه المراحل عبر الزمن الطويل ولم يبق إلاّ المرحلة الأخيرة وهي إحياؤه الثاني المنتظر، أي تحقّقت ٧٥% من مراحل دورته الحيوية في الأرض. فكيف إذن يُساغ له دفع ما تبقّى وهو المرحلة الأخيرة فقط من مراحل الدورة ؟ . والآتي كالفائت بل أهون .

هذا وتنقسم حركة الإنكار للمعاد لدى الكفّار إلى تيارين : افتراضي ومثاله (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (الأنعام:٢٩) وهو غير جديرٍ بالمناقشة لكونه محض افتراء صرف الكتاب النّظر عن الردّ عليه . والآخر نظريّ خليق بالمباحثة والردّ عليه .

نظريات الكفّار في إنكار المعاد :

وتتلخّص في خمسة طعون ضدّ قضية القيامة في القرآن وتمثّل خطبة الاتهام في محاكمة هذه القضية الهامّة التي يترافع فيها، من جانب الدّفاع، قرآن المعاد . والطعون هي :

١- نظرية : أإذا متنا .
٢- نظرية : أإذا متنا وكنّا تراباً .
٣- نظرية : أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً .
٤- أإذا مُزّقنا كلّ ممزّق .
٥- نظرية : أإذا ضللنا في الأرض .

هذه الأسئلة لا يسألها، أي لا ينبغي أن يسألها، من يقرّ بوجوده الحالي . فالذي لا يقرّ بوجوده لا يسأل هذه الأسئلة هرباً من إقامة الحجة على نفسه، بسؤاله، على وجوده . ومن ثمّ لا يسأل أسئلةً لا تعنيه البتّة . ولا نتخيّل أن يسألها الذين لم يُخلقوا ولم يُوجدوا بعد، من وراء حُجب الغيب الكثيفة، حيث أنّ الغائبين في ميتتهم ما قبل الموت الأوّل، وراء الحياة الأولى، يعنيهم فقط عمّا إذا كان في الإمكان خروجهم من ظُلمة العدم النّسبي إلى سبحة الوجود الحسّي . أي انتقالهم من الوجود العلمي في كتاب الله تعالى إلى باحة الوجود العام المشهود من قبل الأنام والهوام على الدّوام . ولكن عندما يتحقّق لهم حلم الحياة الأولى بالميلاد يسقط حقّهم في افتعال الأسئلة وصياغة الشروط عن الحياة الثانية . فلا يكرّرون أو يعيدون سؤالهم الماضي أو السّابق، إذ السّؤال قد أُجيب عليه بالوجود .. ولا يسألون عمّا إذا كنّا تراباً أإنّا لفي خلقٍ جديد؟ إذ هو لغوٌ أبطلته أيضاً تجربة الوجود . فإذا لم يعيي خالقهم بالخلق الأول الهيّن فلن يعيي بالثاني الأهون أبداً . وترتقي هذه النّظريات أو المدارس الموضوعة بإحكامٍ شديد ودقّةٍ متناهيةٍ في مدارج الإعجاز للأسباب التالية :

- بُدئت المدرسة الأولى بالصّعوبة الأولى، صعوبة الموت لأنّه أوّل خطوةٍ جادّةٍ في طريق العدم بنعي الإنسان نفسه للحضور بفساد بنيته وبشدّة فراق الدنيا وشدّة الإقبال على الآخرة .

- وتأتي الصّعوبة الثانية بتهمّد الجسم بالتحلّل وتحطّم الخلايا بانهيار الكيان وبتنسّل اللحم عن العظام وتسرّب الرطوبات في التراب .
- وتتمثّل الصّعوبة الثالثة حيث يفنى الجسم في التراب مفارقاً هيكله العظمي وبذلك يصير تراباً وعظاماً .
- ويقفو هذه الصّعوبات الصّعوبة الرّابعة وتتمثّل في ترمّ العظام والرّفات وتفتّتها وتبعثر الأوصال والأشلاء وتمزّقها كلّ ممزّق . فلا يبقى للإنسان حقيقة مادية أو بقايا متماسكة في أغلب الأحوال .
- وتتوّج هذه الصّعوبات بصعوبة النظرية الخامسة الأخيرة .. نظرية : أإذا ضللنا في الأرض عظاماً حطاماً ورفاتاً دقاقاً، وبتحطّمنا وانتقال أجسادنا إلى أجسامٍ أخرى كالذي يتغذّى منّا، فيتغذّى منه الحيوان ثمّ يموت الحيوان فيتغذّى منه النبات مرةً أخرى ومنها ما يساهم ضمن التراب في صّنع العمران ... إلخ .

ويلحق الماء بالماء في الجوّ أو البحر ويلحق كلّ معدنٍ بمعدنه . وهكذا دواليك إلى ما شاء الله تعالى . أو هكذا يضيع الميّت في التّراب، ويذهب مذاهب شتّى، ويغيب في أطباق الثّرى وظلمات الأرض نهباً بيد البلى، فيتوارى ويفنى .

وينبري القرآن للرّد على طعون الكفّار ومنظماتهم المختلفة في القديم والحديث والمستقبل جميعاً فيقول : (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً، أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الإسراء:٤٩-٥١) كائناً من كان الذي فطركم أول مرةٍ ولو كان بلبلاً أو جدياً يرعى في خمائل البان.

وإذا كنّا نعلم في هذا العصر أنّ المواد العضوية المكوّنة لجسومنا الحاوية للحديد، مثلاً، ينفصل عنها صريح الحديد الذي قد يعود إلى حجارةٍ مرةً أخرى . وقد يتحلّل الجسم إلى عناصره من أوكسجين وأيدروجين وكربون ونتروجين وكالسيوم وفسفور . فإنّ في السّياق ما يزال بقية إعجاز لقابل الأيام وهي قوله : (أو خلقاً ممّا يكبر في

صدوركم) يكبر قدراً وخطراً ممّا وصل أو يصل إليه العلم بمرّ العصور وكرّ الدهور . قد يكون ما يكبر في صدور الكافرين في زماننا الذّرّة ومشتقاتها أو الطّاقة الحرارية المتولّدة عن انفجار القنبلة الذّرّية ممّا يستبعد إعادتها مرّةً أخرى إمعاناً في مهامه التضليل ومجاهيل التيه .. إلخ، أي كونوا بروتونات وإلكترونات وطاقات فسنعيدكم جميعاً كما كنتم أوّل مرّة .

والمعنى بسيط هو أنّهم لما تحدّوا المولى باستحالة إحيائهم، إذا صاروا عظاماً ورفاتاً، تحدّاهم بأن يتحولوا إلى أقصى ما في جعبتهم من المستصعبات التي يتصوّرون فإنّه قادرٌ على إعادتهم فضلاً عن إحياء العظام، والرّفات بعض الإنسان، ولو كان المتصوّر حجارةً أو حديداً .

ولقد فطن الفخر الرّازي في التفسير إلى أنّ الإنسان عبارة عن ذرّاتٍ دقيقةٍ متفرقةٍ في أنحاء الكون فجمعت فكان منها جسم الإنسان . ومهما يتبدّد الجسم بالموت مرةً أخرى فلن يستطيع أن ينفذ من أقطار السموات والأرض وحظيرة الكرسي ويجاوز ظاهرة المكان .قال : "فالحاصل أنّ تلك الأجزاء كانت متفرقةً جداً، أولاً في أطراف العالم ثمّ إنّه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان، ثمّ إنّها كانت متفرقةً في أطراف بدن ذلك الحيوان فجمعها الله سبحانه وتعالى في أوعية المني، ثمّ إنّه تعالى أخرجها ماءً دافقاً إلى قرار الرّحم . فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكوّن منها ذلك الشّخص، فإذا افترقت بالموت مرّةً أخرى فكيف يمتنع عليه جمعها مرّةً أخرى؟" فهذا تقرير هذه الحجّة والله تعالى ذكرها في موضع من كتابه منها سورة الحجّ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) (الحج:٥) .

والحقيقة دأب القرآن على الرّدّ على جميع هذه المدارس في إنكار المعاد بطرح البداءة دليلاً على الإعادة، وإن لمسنا في آية كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم توسّعاً عظيماً في دائرة القدرة على الإعادة، غير ملحوظٍ في آيات الإعادة الأخرى التي تكتفي بأنّ الفاطر لأول مرة قادر على إعادة الناس أي أنّ القرآن يحاجّ للمعاد، الخلق التجميعي، بالحياة الحاضرة، الخلق الحيوي .

وقياس الإعادة على البداءة معناه قياس الخلق التجميعي على الخلق التحويلي. ولما كان الخلق التحويلي الحيوي أرفع من التجميعي بدرجةٍ كان أبلغ في الاستشهاد. ويستحسن أن نصمّم جدولاً يساعد في توضيح الفكرة قبل الاسترسال في الحديث (انظر الجدول) :

المنزلة	نوع الخلق	المقلوب عنه	المقلوب إليه	وجه الإعجاز
أ	التأصيلي	لا شيء	ماء	البروز من العدم
ب	التحويلي الفلكي	ماء	أجرام السموات والأرض	الفخامة والجسامة والوسع العملاق
ج	التحويلي الحيوي	تراب	حياة	نشأة الحياة في الجماد
د	التجميعي	أصول الأموات (رفات أي خردة)	حياة معادة	تجميع الأوصال المفرقة وإعادتها للحياة بعد استراحة الموت

جدول يوضّح منازل الخلق في القرآن الكريم

كذلك انظر للشَّكل (١) لتوضيح مزيدٍ من الفكرة ربما بالشكل ينحلّ إشكال ما .

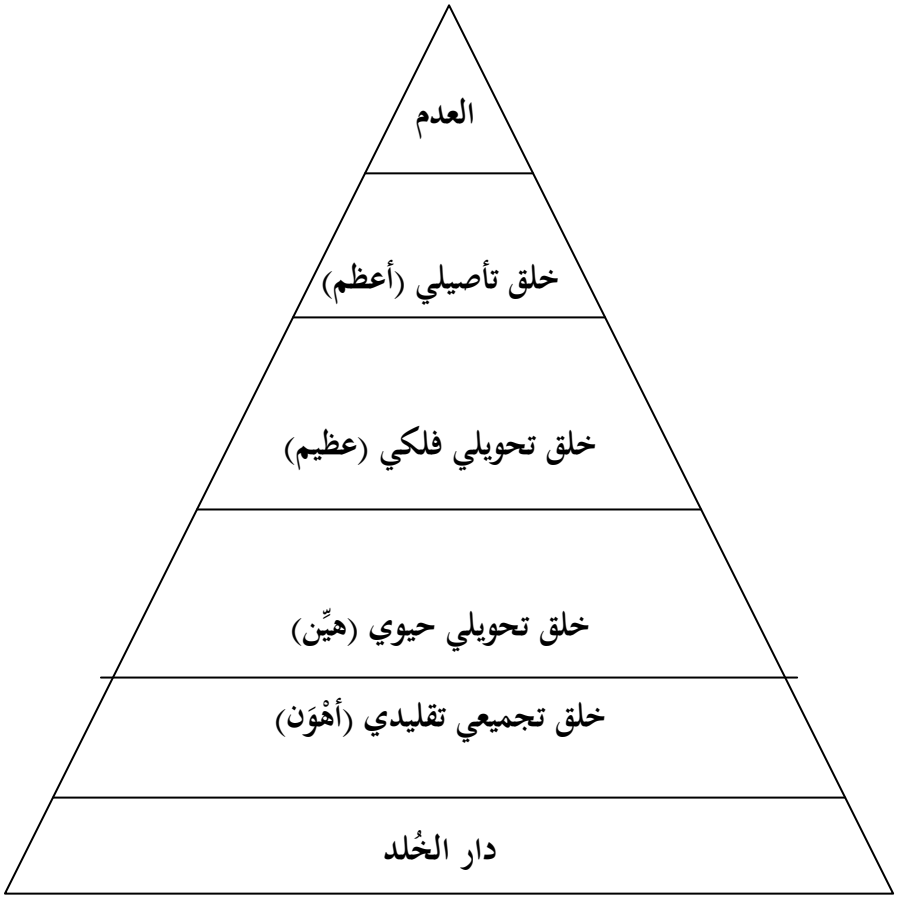

شكل (١) الترتيب الزماني لمنازل الخلق (من الأصعب إلى الأهون)

المستوى الثاني :

أمّا المستوى الثّاني من الآيات فردّه سبحانه وتعالى على منكري البعث :

١- قال تعالى : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (غافر:٥٧) أي له المثل الأعلى، في الخلق، في خلق السموات والأرض .

٢- وقال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) (الروم:٢٥)

في هاتين الآيتين يقيس سبحانه وتعالى المبعث على شيءٍ أجلّ ممّا قاس عليه المرّة الفائتة وهو خلق السموات والأرض . لأنّ خلق السموات والأرض وقيامهما بأمره أي خلقه لهما أيضاً من آياته . فإنّ ابتداء خلق السموات والأرض بتقدير (عظيم) لأرفع شأناً من الخلق الإنساني الذي هو في منزلة (هيّن) . معنى ذلك أنّ خلق هؤلاء الأجرام العظام يعلو خلق الإنسان درجةً ويعلو إعادته بعد مماته درجتين. بمعنى أنّ الخلق التحويلي الفلكي يعلو الخلق التحويلي الحيوي درجةً ويعلو الخلق التجميعي درجتين كما هو مبيّن في الجدول والشكل جميعاً .

المستوى الثالث :

أي الثالث من القسم الأول من الآيات، فكقوله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (يس:٧٨-٨١) وتتلخص هذه الآيات في المستويات التالية :

١- إحياء العظام، وهو خلق تجميعي قياسي على الإنشاء الأول أي الحيوي . وكذلك إحياء العظام يسند إلى انقداح النار في الشجر الأخضر، وهو أثر من آثار الخلق التحويلي الحيوي . وهذا الدليل هو عين الدليل الوارد في المستوى الأول .

٢- خلق السموات والأرض وهو خلق فلكي يسند إليه المعاد وهذا أيضاً عين الدليل الوارد في المستوى الثاني الذي سبق إيراده .

٣- كونه تعالى خلاّقاً ويندرج تحته الخلق التأصيلي، بمعنى أنّ السياق بدأ يترقي في الدليل إلى أن وصل إلى إسناد المعاد إلى الخلق التأصيلي وهو ذروة القدرة وسنامها، كما تقرّر في الشكل والجدول السابقين، وهذا هو المستوى الثالث من القسم النظري من أدّلة المعاد في القرآن .

ومن ثمّ فلا حجّة صحيحة لمنكري البعث، لأنّ القادر على الهيّن أقدر على الأهون . ولكن للمتقدمين وللمتأخرين شبهة حول حشر الأجساد عما إذا كان كلّ واحد سيحشر بجسده الذي كان عليه في الدنيا أو عند الموت لكي يقع الجزاء بعده على البدن الذي اقترف الأعمال . وتقرير هذا الإيراد أنّ هذه الأجساد مركبة من العناصر المؤلفة منها مادة الكون كلّه وهي مشتركة يعرض لها التحليل والتركيب فتدخل طائفة منها في عدّة أبدانٍ على التعاقب. فمن الإنسان والحيوان ما تأكله الحيتان أو الوحوش ومنها ما يحرق فيذهب بعضه في الهواء فيتصل كلّ بخاري أو غازي منه بجنسه كبخار الماء وعنصريه والكربون . وينحلّ ما يُدفن في الأرض فيها ثمّ يتغذّى النبات الذي يأكله الناس بعناصر الإنسان المحلولة في الأرض. وقد تأكل الأنعام من هذا النبات الذي تتغذّى منه أجساد العباد ثمّ يأكل الإنسان من الأنعام . فلا يخلص لشخصٍ معيّن جسد خاص به . بل ثبت أنّ الأجساد الحية تنحلّ وتندثر بالتدريج وقلّما انحلّ بعضها بالتبخّر . وتموت بعض الخلايا فيحلّ محلّها غيرها بسبب الغذاء بحسب سنن الذي أحسن كلّ شيءٍ خلقه . فلا تمرّ بضع سنين على جسدٍ إلاّ ويتم اندثاره وتحدّده . فكيف يمكن أن يقال أنّ كلّ إنسانٍ وحيوانٍ يُحشر بجسده الذي كان في الدنيا ؟

وأجاب بعض العلماء عن هذا بأنّ للجسد اجزاء أصلية وأخرى فضلية . الذي يُعاد بعينه هو الأصلي دون الفضلي . وجعل بعضهم الأصلي عبارة عن ذرّاتٍ صغيرة كعجب الذنب الذي ورد أنّه كحبة خردل بل جوّز أن تكون هي التي ورد أنّ الله تعالى أودعها في صلب آدم أبي البشر بصورة الذّرّ كما روى في تفسير قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف:١٧٢)[١] ويقول رشيد رضا : "وقد بيّنا في غير هذا الموضع أنّ التزام القول بوجوب حشر الأجساد التي كانت لكلّ حيٍّ بأعيانها لأجل وقوع الجزاء عليها غير لازمٍ لتحقيق العدل . فجميع قضاة العالم في هذا العصر يعتقدون أنّ أبدان البشر تتجدّد في سنين قليلة ولا يوجد أحد منهم ولا من غيرهم من العقلاء يقول إنّ العقاب يسقط عن الجاني بانحلال أجزاء بدنه التي زاول بها الجناية وتبدل غيرها بها . فما لم يكن عندنا نصّ صريح من القرآن أو الحديث المتواتر على بعث الأجساد بأعيانها فما نحن بملزمين قبول الإيراد وتكلّف دفعه، فإنّ حقيقة الإنسان لا تتغيّر بهذا التبدّل فقد تبدّلت أجسادنا مراراً ولم تتبدّل بها حقيقتنا ولا مداركنا، ولا تأثير الأعمال التي زاولناها قبل التبدّل في أنفسنا بل لم يكن هذا التبدّل إلاّ كتبدّل الثياب كما بيّناه من قبل ..."[٢].

لقد قُدّمت أبحاث كثيرة عن حقيقة الإنسان المكوّنة من النفس والبدن وتكلّموا عن البدن ما هو وعن النفس ما هي ولا سيما أبحاث علم النفس . وتصبح دراسة الإنسان مشتركة بين علم النفس وعلم الحياة في الغالب . والحديث بهذه المثابة عن الإنسان قديم تناولته كلّ الحضارات القديمة من اليونانية إلى الإسلام . وكلّ ذلك يرجّح الظنّ أنّ النفس مستقلة بذاتها ولا تعلّق حقيقي لها بالبدن إلاّ مؤقتاً . وإذا كان كذلك وجب ألاّ تموت بموت البدن إطلاقاً . ولقد تكلّم الفخر الرازي في هذه المسألة كلاماً وافياً وتبعه نظام الدين النسيابوري في تفسيره ناقلاً عن الرازي الشيء الكثير .

ويذكر أنّ الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية حيث أنّ أجزاء هذه البنية في الذوبان والانحلال والتبدّل بينما الإنسان المخصوص شيء باقٍ من أول العمر إلى نهايته والباقي مغاير للمتبدّل ولا شك . ومن مظاهر التبدّل والتحوّل صيرورة الإنسان في السمن مرةً وفي الهزال مرةً أخرى وضعيف الجثّة ثمّ قويها . ويجد كلّ إنسانٍ من نفسه أنّه شيء واحد طوال مراحل العمر المختلفة . وقد يكون الإنسان عالماً بنفسه وأحياناً يكون غافلاً عن جميع أعضائه وأجزائه كما في حالة النوم . ففي النوم يضعف

---

[١] السيد رشيد رضا : تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، الجزء ٨ ص٤٧٢ .

[٢] المصدر السابق

البدن وتقوى النفس فنشاهد الأحوال ونطّلع على المغيبات ونقوش عالم الأراوح . وإذا كان ضعف البدن ينشّط قوى النفس، معنى ذلك أنّ ضعف البدن لا يوجب ضعف النفس أبداً ممّا يقوي الظنّ أنّ موت البدن لا يستعقب موت النفس . فما كان من كمال النفس كان من نقصان البدن . وهذا يؤكد أنّ النفس لا تموت بموت البدن . وأنّ أحوال النفس على ضدّ أحوال البدن . ويلاحظ في الحياة نفور الإنسان من دواعي الجسد عندما يتعرّض لبعض المسرّات والسعادات النفسانية كالبشارة السارة الطارئة . فالوجود النفسي المغاير للبدن المحسوس لا يبعد أن ينفصل بعد موت البدن حياً يستشرف عذاب القبر أو نعيمه .

ويجد كلاً من أحوال النفس من الغضب والفرح غير أحوال البدن تماماً . فقوّة أحدهما تقتضي ضعف الآخر ولابد . وللسادة المتصوفة أصحاب الكشوفات والإشارات مذاهب في هذا المجال . يقولون أنّ النفس إذا أعرضت عن الطعام والشراب أقبلت على مطالعة العالم العلوي، وزادت سروراً وابتهاجاً وفرحاً وارتياحاً وحبوراً وانطبعت فيها الأمارات القدسية وانكشفت لها المعارف الإلهية .

والظاهر أنّ النفس تبقى متعلقةٍ ببدنها لا كما كان جهازاً يحرّك دولاب البدن ويدبر الأفعال. تبقى متعلقةً بالبدن بتعاطي اللذة أو الألم وتمثلها . و يكفي أن يكون الميت مدركاً للذة الغير أو ألمه إلى قيام القيامة الكبرى . وهذا القدر لا ينافي كون البدن مشاهداً في القبر من غير حركةٍ ولا إحساسٍ ولا نطق . ويؤيّده ما روي عن النبي ε أنّه وقف على قليب بدرٍ وقال : "يا فلان ابن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم ورسوله حقاً فإنّي وجدت ما وعدني ربي حقاً؟ فقال عمر: (يا رسول الله كيف تكلّم أجساداً لا أرواح فيها؟) فقال : (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنّهم لا يستطيعون أن يردّوا شيئاً) . وفي حديث القبر : "إنّه ليسمع قرع نعالهم". وقال النيسابوري : "لعل السرّ في أنّه اكتفى بهذا القدر من التصرّف أنّه إن كان أكثر من ذلك كما سيكون في القيامة الكبرى فى تكليف سائر الأحياء وأفضى الأمر إلى الإلجاء، وهو السرّ في آخر حديث القبر : "فيصيح صيحةً يسمعها من يليه غير الثقلين" . والنيسابوري يعني أنّ الخلائق لو اطلعت على أحوال الموتى لأكثر من هذا

لأدّى ذلك لإيمان الخلائق قسراً وجبراً وبطلت قيمة الإيمان بالغيب بصيرورة المستور مشاهداً ومبصوراً .

واحتجّ الذين يرون بقاء أجساد الشهداء في القبور وأنّها لا تبلى تحت الأرض بما روي أنّه لما أراد معاوية إجراء العين على قبور الشهداء أمر بأن يُنادى : من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع، قال جابر فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان، فأصابت المسحاة إصبع رجلٍ منهم فقطرت دماً . والله أعلم بأسرار المخلوقات .

إذاً فمسألة الموت والحياة مسألة نسبية، بمعنى أنّها صعبة مستعصية لدى طرف، سهلة متيسرة لدى طرفٍ آخر، بعيدةٍ عن علم الإنسان وإدراكاته، قريبةٍ من علم الله سبحانه وتعالى، لأنّ الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها . وبداهة العقل تحكم بموت البدن وبعثه في اليوم والليلة عدة مرات .

هذا، ويمكن تلخيص ظاهرة النفس والبدن في المسائل التالية :

المسألة الأولى :

يبدو أنّ ظاهرة الموت متعلقة بالبدن فقط دون النفس، مثال ذلك أنّ أبداننا تموت وتحيا وتتجدّد الخلايا باستمرار طوال فترة الحياة الدنيا، غير أنّنا لم نعهد لأنفسنا وحقيقتها الإنسانية تحوّلاً يّذكر أو موتاً أبداً سواء في المنام أو في اليقظة . فالنفس لا تغيب بسبب النوم أو اليقظة ولكنها تتأثّر بهذه الأعراض قوةً أو ضعفاً فقط . بمعنى أنّها تتقوى عند النوم وتضعف عند اليقظة مثلاً . لكنها في يقظة وحياةٍ على الدوام .

المسألة الثانية :

فإذا كانت النفس يتعلّق بها الموت أو أنّها تموت ثمّ يحييها الله على الفور، فمعنى ذلك أنّها قائمة على الدوام، والقائم الدائم يستحيل في حقه القيام . وإذا كان الأمر كذلك فالشطر الجسماني فقط من الإنسان المتعلّق به أبحاث القيامة عندنا ولأنّ بحث هذا الجانب هو المستطاع والمقدور عليه .

المسألة الثالثة :

يمكن أن يُفسّر إخراج أبدان شهداء أُحد رطاباً من التراب بعد الزمان الطويل بالقول أنّ أحوالاً بيئية معينةً توافرت فعملت على سلامة هيئات الأبدان في هذه الواقعة بتكوين الله.

وذلك أمارة على إمكان إعادة السلامة يوم القيامة لسائر الأبدان الفاقدة لسلامتها البدنية بتوافر أحوال بيئية معينة، حيث أنّ اجتماع الأحوال البيئية المعينة قد أدّى في الماضي إلى نشأة الحياة الأولى نفسها وبروزها وقيام آدم عليه السلام من مشيج الماء والتراب، بشراً من صلصالٍ من حمأٍ مسنون . ولعلّ عجوب الذنب تبقى نوىً حيةً بعد الموت في سائر المكلفين حيث يبرز منها البشر يوم القيامة .

إنشاء العظام لأول مرة :

وهذا هو الخلق الأول وبدء الحياة وهو ما سميته الخلق التحويلي الحيوي وهو ظاهر ماثل للعيان . إذ كلّ حيٍّ قائم بالحياة وكلّ حياةٍ قائم بها حيّ ودرجته (هيّن) كما هو في الشكل (١) . والإحياءة الأولى هذه غالباً ما يحاجّ بها الإحياءة الآخرة لتماثلهما في وجوه وإن كانت الأولى معجزة، و (موضة) عند ظهورها قبل أربعة بلايين سنة يباهى بها كوكب الأرض سائر الكواكب ويفاخر . فالأولى معجزة أكبر من الثانية لأنّها على غير مثالٍ سابقٍ ولا تجربةٍ حيويةٍ مستفادةٍ من قبل .

انقداح النار من الشجر الأخضر :

قيل هو شجر المرخ والعفار أو كلّ شجرٍ إلاّ العناب . وتوقدون يعني تقدحون وهو دالّ على القدرة على البعث . فإنّه جمع فيه بين أضاد : جميع فيه بين الماء والنار والخشب، لا الماء يطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب . وبهذه المثابة فالانقداح يُعدّ ضرباً من الصناعة يدلّ على أنّ وراء الخاصية مشيئة سنية .

وهو . أي الانقداح . جزء من خلق النبات ويُعدّ بعض خصائص الخلق التحويلي الحيوي . وينظم في درجةٍ هيّن ليكون أقوى ويكون الفارق أظهر عند المحاجة على الإعادة . وعملية الفرك هذه لإيقاد النار معروفة عندنا ولا سيّما البدو والريف .

كنّا نطفئ النيران القديمة ونوقد نيراناً جديدة بمناسبة العام الهجري الجديد. ولكنّنا نحصل على النار بفرك عودٍ يابسٍ على لوحٍ يابسٍ من الخشب ومن شجرٍ مخصوصٍ يُقال له (القفل) في غرب القطر السّوداني . وهذه النار عبارة عن طاقةٍ متولّدةٍ عن الاحتكاك . أمّا انقداح النار بين عودين أخضرين يقطران ماءً فهذا أعجب .

خلق السموات والأرض :

وهو الخلق التحويلي الفلكي العملاق كما مرّ بنا في آية غافرٍ والرّوم . فالمشركون مقرّون بأنّ السموات والأرض مخلوقة لله تعالى وهي خلائق عظيمة لا يقدر قدرها وخلق الناس بالقياس إليها شيء هيّن . وإذا كان ابتداء خلق السموات والأرض داخلاً تحت القدرة وهو خلق عظيم، فابتداء خلق الهيّن . أي الناس . أدخل تحتها وإعادتهم أدخل من ابتدائهم. فالإعادة أولى أن تكون مقدوراً عليها، ممّا اعترفوا به من خلق السموات والأرض بدرجتين كما جاء في الشكل .

وبهذه المثابة فإنّ الآيات الأخيرة من سورة يس جامعة لكلّ منازل الخلق وصالحة للإفادة على جنس ما هو مخلوق أو سيخلق لاحقاً، والإحاطة بكلّ منازل الخلق في القرآن. وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ . ويأتي اختراع الماء من العدم في ذروة الخلق ومنزلته في قمة المنازل والرتب وتقديره (أعظم) كما جاء بالشكل . فهو خلق أعظم حقاً لم يتقدمه خلق. خلق جليل وبديع يدقّ عن التصوّر ويربك العقول ويبعث على الحيرة والذهول .

وبهذا يعلو الماء على إحياء العظام الرميم ثلاث درجات . إذ هو في سنام الخلق ومنزلته في قمة المنازل . لا يسيل إليها السيل ولا يرقى عليها الطير . فأين الخلق التقليدي من الإبداعي التأصيلي ؟ أو كما قال الأعشى :

ما يجعل الجَدُّ الظنون الذي جنّب صوبَ اللجب الماطر
مثل الفراتي إذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر

شتّان ما بين جد (بئر) في الصحراء يظنّ الماء به ظنّاً وبين نهر الفرات وافر الماء وافي الري، قوي الموج إذا ما طما .. رمى .

قال هيكل Haeckel عالم البيولوجيا الشهير : "ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان" .

يقول الأستاذ كريسي موريس في الردّ عليه : " إنّ هيكل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فإنّ أول شيءٍ سيحتاج إليه عند خلق الإنسان، هو الذّرّات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثمّ سيخلق الجينات، أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذّرّات، حتى يعطيها ثوب الحياة .. ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كلّ هذا، لا يعدو واحداً على عدة بلايين، ولو افترضنا (هيكلاً) نجح في محاولته، فإنّه لن يسميها مصادفة، بل سوف يقرّرها، ويعدّها نتيجة لعبقريته[1] .

يريد هيكل أن يخلط بين الأشياء فيحولها إلى مخلوقٍ حيويٍ (حقير) . والردّ البسيط على الخزعبلة الهيكلية : أن يأتيني هو بالماء مخترعاً من عنده من العدم، وبالماء فقط .. وسأخلق له إنساناً عالماً وكافراً وكذّاباً مثله، خلقاً حيوياً وتحويلياً في درجة (هيّن) . فتباً لك يا هيكل وتب!! أكفرت بالذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ سوّاك رجلاً يا عالم الحياة ؟! وإذا خلقك من ترابٍ فقد كنت معدوماً فأوجدك . وإذا خلقك من نطفةٍ فقد كنت ميتاً فأحياك . وإذا سوّاك رجلاً فقد كنت جنيناً فرباك وعاجزاً فأمكنك وأقدرك وجاهلاً فعلّمك وصامتاً فأنطقك، وعائلاً فأغناك . ولكن لما جحدت غاية الإحسان إليك فأضلّك ولعنك وأبعدك وطردك .

ولنختم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكي جورج إبرل ديفيس :"لو كان يمكن للكون خلق نفسه، فإنّ معنى ذلك أن يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحالة سنضطر أن نؤمن بأنّ الكون هو الإله . وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله) .

[1] وحيد الدين خان : الإسلام يتحدّى، دار البحوث العلمية ١٤٠٢هـ/١٩٨٣، ص ٧٨، بتصرّف .

ولكن إلهنا هذا سيكون عجيباً : إلهاً غبياً ومادياً في آنٍ واحد !! إنّني أفضّل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومدبره، بدلاً من أن أتبنّى مثل هذه الخزعبلات .

وهذا البحث محاولة لتنظيم وتقنين ظاهرة الخلق في القرآن ووضع الأسس والقواعد العلمية الحاكمة في تصنيف جميع المخلوقات، أعظمها وأحقرها وما كان منها وما سيكون . وتبيان مصادرها وأصولها وضبط خصائصها وارتباطاتها ومنازلها المقررة لها في سلم القدرة السنية .

يسعى البحث لإثبات المعاد الذي سيكون وتوكيده، والذي لا يتوطن إلاّ الوطن (الأهون)والمنزل القميء من منازل الخلق البهي، تحريراً للاعتقاد ودحضاً للعناد .

ونخلص إلى أنّ القرآن المعادي ينقسم إلى قسمين :

أ- نظري

ب- مادي

وينقسم النظري إلى :

١- ذاتي أي دليله ذات الشيء .. وينقسم إلى لازمٍ ومتعدٍ .

٢- خارجي أي دليله خارج ذات الشيء ويأتي على ثلاثة مستويات (انظر الشكل ٢) .

١- أمّا الذاتي : فهو اعتبار تصريح القرآن بالمعاد حقاً وحجةً ملزمةً لجميع الأطراف المعنية، بمعنى أن القرآن كلام الله وأنّ كلامه لا يكون . بداهةً . إلاّ حقاً وصدقاً وصحيحاً وصواباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميد .

ومن ثمّ ليس هناك من ضرورة تلجئ القرآن لتبني أساليب المنطق المختلفة أو المعادلات الرياضية والقرائن المتماثلة لأطراف القضايا المتشابهة أو الجنوح إلى الأدلة المادية الصلبة الماثلة امام الناس من خلقهم وخلق السموات والأرض ..إلخ. فمجرد التصريح بحكمٍ من الأحكام أو التقرير على قضية من القضايا في القرآن يعتبر كافياً في حدّ ذاته لكون القرآن معجزة سالبة للمعارضة صارفة للتحدّي .

ومن أمثلة هذا القسم من الآيات الذاتية المعادية اللازمة قوله تعالى في مفتتح سورة : القارعة (الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة:١-٣) . ومثال المتعدي قوله تعالى في سورة التغابن : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (التغابن:٧) حيث تعدّى السياق بالتوكيد البياني للدلالة على الجد . في قوله (وربي) هو قسم وفي (لتبعثنّ) و(لتنبؤنّ) المؤكدين باللام والنون . ويبدو أنّ السياق قد اكتفى بالدعوى فقط.

٢- أمّا القسم النظري الخارجي فيأتي على ثلاثة مستويات :

المستوى الأول :

ويعالج قضية المعاد قياساً على النشأة القائمة . أي على الخلق الحيوي كقوله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس:٧٨،٧٩) أي أنّه سبحانه وتعالى قرن البعث إلى النشأة الأولى بمعنى أنّه أسند البعث الثاني إلى البعث الأول لكونهما متماثلين من جميع الوجوه .

المستوى الثاني :

ويعالج قضية المعاد قياساً على الخلق الفلكي كقوله تعالى : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (يس:٨١) أي أنّه قرن البعث إلى خلق السموات والأرض الرهيب .

المستوى الثالث :

ويعالج قضية المعاد بإسنادها إلى الخلق التأصيلي الصادر عن لا شيء كما مر بنا. وأطلق على هذا القسم مصطلح (خارجي) لأنّ مستلزمات القضية وبراهينها مستوردة من وراء الحدود، وليست ذاتيةً محضة كما تقرّر في البحث . أي خطا القرآن خطوةً في الإثبات فلجأ إلى إبراد قضايا مشابهة أخرى لدعم قضية المعاد كما رأينا .. بمعنى أنّ السياق القرآني خطا خطوةً عظيمةً كبيرةً وأخيرة فأسند الخلق التجميعي إلى الخلق التأصيلي المستوحى من كلمة (خلاّق) التي جاءت بصيغة مبالغة من كلمة (خالق) كما قال تعالى : (وهو الخلاق العليم) .انظر الجانب النظري لقرآن المعاد في الشكل (٢) بمعنى أنّ الجناح الأيمن (القرآن المعادي النظري) من الشكل هو المستفاد منه في هذا البحث بينما الجناح الشمالي (القرآن المعادي المادي) يخصّ بحثاً آخر أكثر حظاً في البرهان المادي .

وأخيراً يرتقي القرآن المعادي في مسار الأدلة فيطرق أبواب المادة التي يقرّ بها الجميع وحتى السّذج والمجانين، دواب البحر ووحوش البر، كلّ يستشعر ذلك بالغريزة أو الفطرة ويعيش وفق الواقع . وحتى لا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل .

وهذا القسم المتعلّق بالمعاد فهو القسم المادي الذي يصوّر المعاد تصويراً بيئياً حياً وصادقاً ممثلاً في ظاهرة إحياء الأرض الأول ثمّ إحياء الأرض بعد موتها في بعديها الزماني والمكاني علاوة على إماتة الأرض بعد حياتها (انظر الشكل ٢) .

ولتقرير هذه الظاهرة سيخطو التصوير البيئي للمعاد خطواتٍ في البحث ليؤكّد أن ليس المعاد إلاّ بعداً عادياً وطبيعياً من أبعاد الإماتة والإحياء المتمثلة في الدورة الحيوية للأرض في القرآن .

وقد بُحثت هذه الدورة ليتكامل القرآن المعادي ويلتئم ويتقرّر حجم المعاد من سائر أحجام الخلق.(انظر مجلة دراسات دعوية، العدد السّادس،يوليو ٢٠٠٣م).

ومن ثمّ فإنه سبحانه وتعالى عندما يصوّر المعاد بحياة النبات التصوير البيئي فإنّما يقيس المعاد بالمنزلة المماثلة له فقط دون المنازل الأخرى العليا غير المطاولة .

فالمباحثة حول أقطار القدرة الباهرة غير المتصورة لله سبحانه وتعالى تأتي تأييداً لدور التصوير البيئي للمعاد في القرآن الكريم ولله المثل الأعلى . وما أمر الخلق التجميعي إلاّ شيء يسير متواضع بالقياس إلى الخلق التأصيلي غير المتصوّر الذي تكل في إدراكه الأفهام وترتبك الأحلام وتنهار .

ولقد أشار القرآن بأنّ هناك منزلاً ما من خلق هو أكبر من خلق الإنسان . فقال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) غافر : ٥٧. يعني أنّ خلق السموات والأرض، أيّ هذا الخلق الفلكي، لأكبر من خلق الناس الحيوي وأنّ خلق الناس الحيوي لأكبر من خلقهم الثانوي الأعادي والذي هو في الطريق . فهذه المباحثة تبحث في مجموع منازل الخلق وأقسامه التي يفصح عنها الكتاب الحكيم في مكان دون مكان، ويقول ببعضها المفسّر أو المحدث، ولكن لا تجد هذه المنازل مجموعة بعضها إلى بعض في نسقٍ علميٍّ ومنهجيٍّ ملتئم يستفاد منه في مجال الدراسة والبحث العلميّ . هذا، ولقد توافر لي من مطالعتي في الكتاب المبين ثلاثة منازل رئيسية للخلق في القرآن ترتب على النحو التالي بحسب القدر والخطر .

٤- خلق تأصيلي مطهّر من لا شيء .

٥- خلق تحويلي من شيء .

٦- خلق تجميعي من أصول .

وبهذه الطريقة المقارنة تنسجم المقارنة وتتضّح المباينة بجلاء بين منزلٍ وآخر أو مرتبةٍ وأخرى . وبهذه الطريقة أيضاً تنسجم أنواع القدرة السنية التي يشير إليها القرآن من موضعٍ لآخر وتتضّح المباينة بجلاء بين قدرةٍ وأخرى من قدرات المولى عزّ وجلّ التي يلوّح بها القرآن من موضعٍ لآخر . فقد يفصح القرآن في آيةٍ من الآيات حيث يشاء أن يقرّر حكماً بأنّ ذلك على الله يسير . ومراتٍ يلوّح بأنّ الله على كلّ شيءٍ قدير . وهناك فارقٌ جليٌّ وبونٌ واسعٌ

بين تيسير الشيء على الله وبين مقدرته على كلّ شيء . فلا شكّ أنّ منزل المقادرة أرفع خطراً وأعلى كعباً وأقوى برهاناً من مجرّد المياسرة المتاحة لكثيرٍ من (صفحة ٦٦ غير موجودة) .

٣- قديم مطلق بحسب الذات :

وهو الذي ليس له مبدأ يتعلّق به، وهو الله الواحد الحق . أي ليس لوجوده بداية حيث أنّه كائن لا عن حدث وموجود لا عن عدم . فلم يسبق له حال حالاً . فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً . ولما كانت كلّ بداية حدثاً وكان الله صانعاً لكلّ حدث، امتنع أن يتعلّق وجوده بحدث . فكان وجوده بلا بداية .. والحمد لله الذي هداني لهذا التقرير .. تقرير إبطال البداية في حقّ واجب الوجوب سبحانه .

ويضيف الشيخ قائلاً : فمن كلامه هذا في معنى القدم وهو يشير به إلى معنى الزمن، الذي أوضحه الغزالي من بعده، يظهر لك أنّه لا يرى أبداً أن العالم قديم بذاته، وغير مخلوقٍ لله. بل يريد أنّ قدم العام، إنّما يسمّى قدماً مطلقاً، لأنّ الله خلقه قبل الزمان فليس له مبدأ زمانيّ . ولا يقاس هذا القدم المطلق الزمانيّ (بالقدم المطلق الذاتيّ)، الذي يوصف به القديم المطلق الأزليّ الحق . فقد كان الله ولم يكن عالم و لازمان، ثمّ خلق الله العالم فبدأ الزمان . وإذا كان العالم يوصف بأنّه قديم فإنّما يراد به قديم بحسب الزمان، لا بحسب الذات .

يؤمل من هذه الدراسة أن تأتي بذخيرةٍ وافيةٍ وكافيةٍ وبمددٍ من الأدلّة بعيدة المدى لتأييد ودعم دليل الماء الذي يساق لتمثيل إخراج الموتى وتشبيهه بإخراج النبات لكون الماء من أتمّ النعم وأجلّها وأحسّها أثراً في حياة الناس. فقد صوّر القرآن المعاد تصويراً بيئي اً أجمل ما يكون التصوير .. تصويراً قوياً وبليغاً وكصادق اً يأخذ بمجامع النّفس ويبعث على التأمّل والتفكير . قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاب اً سقناه لبدٍ ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثمرات، كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون) الأعراف : ٥٧ .

وتمثّل منازل الخلق في القرآن، في الحقيقة، جزءاً من مرافعة قرآن المعاد في محاكمة قضية القيامة في القرآن من منظورٍ بيئي . ترتّب منازل الخلق في القرآن على النحو التالي :

(أ)خلق تأصيلي طهور من لا شيء .

هـ- خلق تحويلي فلكي من شيء .

و- خلق تحويلي حيوي من شيء .

ز- خلق تجميعي تقليدي من أصول .

ب-خلق تأصلي من لا شيء :

يعرف الخلق بأنّه إيجاد الشيء على تقدير واستواء . يقال خلق الحذاء إذا قدّرها وسوّاها على قياس . أمّا فطر فيعني ابتداء الشيء . يقال فطر البئر بمعنى أنّه أوّل من ابتدأها وأوجدها . أمّا ابتدع فيعني إيجاد الشيء من لا شيء . إذ لا معنى للابتداء إن كان عن شيءٍ موجود . جاء في كتاب بدء الخلق من صحيح الإمام البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ε : (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء وخلق السموات والأرض) . يفهم من الحديث الشريف أنّه كان الله سبحانه ولم يكن في الوجود غيره، يعني كلّ عدم إلاّ وجهه ثمّ اقتضت حكمته ومشيئته أن يخلق العرش ويجعله على الماء . فكأنّ الخلق بدأ بالماء ثمّ العرش .

فإذا كان العرش صُنع من ماء فيكون الماء الجوهر الذي صدر ت عنه جميع الخلائق، لطيفها وكثيفها، وأنّ الله سبحانه وتعالى ابتدعه ابتداعاً إيجاداً من عدم أي من لا شيء . فيكون الماء أوّل موجودٍ مسبوقٍ بعدم وغير مسبوقٍ بشيء غيره . وإن لم يكن العرش صادراً عنه وكان مساوقاً له في النشأة فيكون مخترعاً آخر من غير جنس الماء . وبذلك يكون الماء والعرش أوّل مخترعين يخرجان من الغيب إلى الوجد ويسجّلان بذرة الكون في العالم .

وإذا كان ذلك كذلك فيكون الموجودان ذا طبائع مختلفة كأن كان العرش وجوداً لطيفاً لطف عن الأبصار فلا نعلم عنه شيئاً إلاّ عن طريق السّمع أي النقل بينما كان الماء وجوداً كثيفاً تتعلّق به جميع الحواس ولا تخطئه الأيدي والأبصار .

وبذلك اتّخذ المبدعان الجديدان مسارين مختلفين . فكان الأوّل خارجاً عن مجال الدراسة والعلم التجريبيّ والبحث، بينما الثاني أي الماء صار مادة الخلق جميعاً، مادة وروحانية كما يدلّ الأثر .

وبهذا فسوف يُتابع تطوّرات الخلق لكونه صالحاً للبحث وواقعاً تحت التجربة للاعتبار وأيةً على مبدعه ومخترعه من العدم . وحديث البخاري تسانده آية قرآنية في نفس المعنى وهي قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستّة أيّام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً) هود : ٧ .

وما جاء في تفسير هذه الآية يعزّز ما تقرّر آنفاً . وفحوى ما جاء من التفاسير لقوله تعالى: (وكان عرشه على الماء) أي ما كان تحته خلق قبل خلق السموات وارتفاعه فوقها إلاّ الماء . وفيه دليلٌ على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض .

وقال أبوبكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات له قوله ε "كان الله ولم يكن شيء قبله" يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما .

وقوله : "وكان عرشه على الماء" يعني وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثمّ كتب في الذكر كلّ شيء .

ويرى، أيضاً، قومٌ من الفلاسفة أنّ الماء أي الجوهر السائل أصل كلّ الأجسام كثيفها من تكاثفه ولطيفها من شفائفه . ومعنى ذلك أنّ الله خلق في الفضاء ماءً حمله على متن ريح فاستقلّ عليها حتى صارت له مكاناً ثمّ خلق فوق ذلك الريح ريحاً أخرى سلّطها عليه فموّجته تمويجاً شديداً حتى ارتفع فخلق منه الأجرام العليا والنيّرات وسائر السيّارات .

وبهذا نصل إلى أنّ الماء هو أوّل منزلة من منازل الخلق القرآني . وهذا يعني أنّه ابتدع ابتداعاً واخترع اختراعاً من قبل البارئ جلّ وعلا الذي أنشأه إنشاءاً وابتدأه ابتداءاً، بلا روية، أي فكر، آجالها ولا تجربة استفادها من أحدٍ غيره . فكان الفعل دليلاً على قوّةٍ وكانت القوّة برهاناً على وجود الله .

وإذا كان في الماضي يعدّ عنصراً فقد فلق إلى عنصري ن آخرين هما الأكسجين والهيدروجين اللذان يملآن بعض الفضاء ويشاركان في تكوين الأجرام وسير الحياة في الأرض . فمن أين جاء هذان العنصران؟ ومن أي شيء اشتقا؟ ومن أي سيء تمّ

استنساخهما؟ إلى آخر الأسئلة الحائرة . هنا يحتار العقل ويرتبك الذهن أمام إبداعٍ خارقٍ وصنعٍ عريق .

وبهذا يحتلّ العقل التأصيلي المنزلة الأولى والرتبة العليا من بين صنائع الرحمن . إذ هو الاقتراح الأصعب في العقل البشري غير المتخيّل وغير المتصوّر الذي لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل في كافة مقترحات البشر . لكونه الصنع الأطهر فيقال اخترع فلان الآلة البخارية أو جهاز المذياع أو التلفاز مثلاً . لكن في الحقيقة صانع قام بمعالجة المواد الأولية لزيادة قيمتها النفعية ولجعلها أكثر ملاءمةً في إشباع حاجات الإنسان ورغباته . معنى ذلك أنّ الإنسان يقف حائراً وعاجزاً عن إيجاد مثقال ذرةٍ من مادة (جماد) . ولعلّ حائراً يسأل بهذه المناسبة قائلاً :

هل خلق الذباب مستطاع من دون الله؟ :

(يا أيّها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعُف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حقّ قدره، إنّ الله لقويٌّ عزيز) الحجّ : ٧٣-٧٤ . فالتحدّي الحكيم في خلق الذباب قائمٌ على منزلتين من منازل الخلق هما : الخلق التأصيلي، الذي نحن بصدده الآن، والخلق التحويلي الحيوي الذي سنعالجه فيما بعد . وواضحٌ أنّ الجانب المتعلق بالخلق التأصيلي عسير سالب للمحاكاة .

بمعنى أنّ إيجاد المادة الخام اللازمة لصناعة ذبابة، كائنة ما كانت الذبابة، أعسر وأشقّ من مجرّد محاولة صنع الذبابة نفسها .

فقد آخذ عجيناً من طحين البرّ أحاول أن أصنع منه ذبابة ما . لكن من أين لي أن أخترع مادة العجين أو تناولها من وراء ملكوت الله؟ بل من أين وكيف أحصل على جرام واحد خام لازم لصناعة ذبابة واحدة صغيرة أو شرنقة بعوضة .

لقد سمعنا بالإنسان الآلي ولعلنا نسمع في المستقبل بالذباب الآلي . . والبعوض الآلي. وعلى الرغم من ذلك سيظلّ التحدي قائماً لأنّ مواد الإنسان الآلي والثعلب الآلي

والكمبيوتر مخلوقةٌ لله، ولم يخترعها الإنسان سواء عن طريق العلم أو السّحر وبطريقةٍ مشروعةٍ أو غير مشروعة . فللّه ما في السموات وما في الأرض جميعاً، ملكاً وعبيداً وتسخيراً ومادّ أولية .. إلخ . وهكذا ترى استغراق الخلق التأصيلي في الإعراق .. وترى ضعفاً هزيلاً للطالب يكون إماماً لضعف المطلوب الحقير . خلق الذباب معلوم وأمّا خلق المادة فمجهول . إذاً لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .

ذلك أنّ خلق الذباب إعجازٌ إلهيٌ غير مستطاعٍ للإنسان المعاصر وغيره وليس من المستحلات العقلية بحالٍ من الأحوال . ذلك أنّ التّحدّي لا يكون إلاّ في الممكن الذي لا يكن للإنسان . وذلك أيضاً، أنّ الإعجاز لا يتعلّق إلاّ بالممكنات وليس بالمستحيلات بحالٍ من الأحوال .بالإضافة إلى هذه الصعوبات التي يواجهها الإنسان في خلق الذبابة، فإنّه سوف يواجه بصعوباتٍ أخرى خاصة بالملكية . ذلك أنّ الإنسان، كما ذكرت، لا يملك من لدنه مواداً أولية كافيةً لخلق ذبابة . إذ أنّه لا يملك زنة لفافة النواة . أي لا يملك قطميراً كما جاء في سورة فاطر . ذلك أنّه لا يملك ولو جزءاً من مليار جزءٍ من قطميرٍ أو ما يساويه من مواد أخرى . أي لا يملك ملكاً حراً من شيءٍ إلاّ صفراً أو أصفاراً . والصّفر عدمٌ غير كافٍ لصناعة جناح ذبابة فضلاً عن ذبابةٍ كاملة .

لعلّ خلق الإنسان للذبابة ليس من المستحيلات العقلية فني اً ولا سيّما أمام التكنولوجيا الحديثة . ولكن إذا كان لا يملك مواداً أوليةً لخلقها خرج خلقها من الممكن فنياً ودخل في حيّز المستحيل لانتفاء شرط الملكية والسيادة . ويتحوّل خلق الذباب من الممكن عقلاً إلى المستحيل أبداً . وناهيك عن صعوبات الرّوح والهداية والوراثة ...إلخ .

وهكذا تتجلّى المباينة البعيدة بين المقل وبين عنه وهو العدم والمقلوب إليه وهو الماء. بمعنى أنّه لا مقلوب عنه البتّة . وما ذكر من استحالة خلق الذباب إلاّ توطئةً لتفهم

خلق الماء أي خلق المادة من لا مادة . بمعنى أنّه لا مقلوب عنه البتّة . وبهذا يكون خلق الماء ما يستقلّون إليه سائر منازل الخلق .

(ب) خلق تحويليّ فلكي :

يُقصد بالخلق التحويلي الفلكي : استخدام المادة الخام وتحويلها من حالتها البدائية الأولية إلى حالةٍ أو هيئةٍ معقدةٍ وجديدةٍ وفق مقتضيات المشيئة الإلهية . وهذا الصنف من الخلق يماثل في صورته العامة صناعة البشر التحويلية التي يتمّ بها تحويل مادةٍ أو مواد من حالتها الأصلية إلى حالةٍ أو هيئةٍ جديدةٍ تصبح معها أكثر إشباعاً لحاجات الإنسان ورغباته كأن يحوّل القطن الخام إلى منسوجاتٍ قطنية والحديد الخام إلى مكائن وآلاتٍ أو إلى صلب ...إلخ . فالقطن مقلوبٌ عنه والمنسوجات مقلوبٌ إليها . وبهذا يكون المقصود بالخلق التحويلي الفلكي خلق السموات والأرض من الماء .

إذ الماء الأسّ الذي بني عليه أجرام الكون كلّه كما تؤكّد ذلك كلّ النّظريات العلمية والمأثورات السمعية في العالم . فلو كان لشيءٍ ما أن يُعبد من دون الله، كان حقّ الماء على النّاس أن يتّخذوه إلهاً . إذ هو أولى بالربوبية من الشّمس ولقمر والكواكب والنّجوم، أولى من ودٍّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر . بل أولى من رع وأبوللو وعزى وهُبل، أولى من النّار والحيوان والحجارة أوثاناً وطواطم . بل عبد الماء أولى من عبد الشّمس . وأسف الفكر البشري إسفافاً بليداً وهدم المنطق هدماً شديداً عبر التاريخ عندما اتّخذ من الملكوت البيئي ما لا ينفع نفع الماء، ولا يضرّ ضرر الماء، ولا يسمو سمو الماء، إلهاً من دونه .

ولو أنّ مخلوقاً يؤهله لم تكن لسواك مرتبة الألوهية تخلق

قال تعالى : (قل إنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسّائلين، ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين، فقضاهنّ سبع سموات في يومين وأوحى فجي كلّ سماء أمرها، وزي نّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فُصّلت : ٩-١٢ . فحوى الآيات أنّه قيل أنّ العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وأنّه تعالى أخرج من الماء دخاناً فارتفع

فوق الماء وعلا عليه، فأيبس الماء فجعله أرضاً ثمّ خلق السماء من الدخان المرتفع . ومعنى هذا، وكما جاء في خطبة الإمام علي رضي الله عنه، أنّ الله خلق في الفضاء ماءً حمله على متن ريحٍ فاستقلّ عليه حتى صارت مكاناً له، ثمّ خلق فوق ذلك ريحاً أخرى سلّطها عليه فموّجتها تمويجاً شديداً حتى ارتفع فخلق منه الأجرام العليا .

وتجمع النظريات العلمية والفلسفية جميعاً، قديمها وحديثها، بأنّ الماء أصل الكون، وأهمّ عناصر الماء المرصود في المناظير الفلكية الهيدروجين، حيث يؤكدّون أنّ الكون مخلوقٌ من سدم وهي عبارة عن سحائب رقيقة وغازات عائمة في الفضاء . وبهذا يكون الماء المقلوب عنه والسموات والأرض المقلوب إليها .

ولا شكّ أنّ هذه الأجرام الجسام السّابحة في فضاء الكون أكبر وأصعب وأشقّ من خلق النّاس . لأنّها بحاجةٍ إلى كمياتٍ هائلةٍ من خام الماء للتصنيع بالإضافة إلى المكان الذي تستقرّ عليه حيث تتحيّز حيّزاً واسعاً وعميقاً كأنّما لا نهاية له .

وفوق ذلك إنّ عالم السموات في مددٍ وتوسّعٍ جارٍ كما رصده علماء الفلك وكأنّه تفسير لقوله تعالى : (والسّماء بنيناها بأيْدٍ وإنّا لموسعون) الذّاريات : ٤٧ . ومن آيات الله في عالم السّموات استواء الأجرام الضّخام في الفضاء على غير عمدٍ تُرى . وإمساكهنّ أن تهوي إلى الأرض إلاّ بأمر الرحمن مترئفاً ومترحماً على خلقه . أو مسكهنّ أن تزولا من ساحة الوجود . فإمساك هذه الأجرام الضّخام من الزوال لأشدّ كلفةً ومؤونةً من حفظ النّاس وسيرهم أسوياء على صراطٍ مستقيم .

فخلق الإنسان، ولسوف نتحدّث عنه إن شاء الله، لا يساوي شيئاً بالقياس إلى خلق السموات والأرض المهول . وساء المقلوب عنه أو المقلوب إليه في غاية التعاظم . وهناك عدّة سور في القرآن الكريم بُدئت بالحمد لله . إذ هو أهل الثناء الجميل . قال تعالى : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظّلمات والنّور، ثمّ الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذي خلقكم من طين ثمّ قضى أجلاً وأجلٌ مسمّى عنده ثمّ أنتم تمترون) الأنعام : ١-٣ .خصّ السموات والأرض بالذكر أولاً لأنّهما أعظم المخلوقات للنّاظرين ثمّ قفاهما بخلق الإنسان من طين الذي هو بعض الأرض .

يقدّم خلق السموات والأرض على الخلق الحيوي في آية البقرة : (إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السّماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح المسخّر بين السّماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون) البقرة : ١٦٤ . والحقيقة ألاّ مقارنة بين الخلق الفلكي للسموات والخلق الحيوي للإنسان وغيره من الحيوانات . (أو ليس الذي خلق السّموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم) يس : ٨١ .

توضّح الآية الأخيرة بجلاء أنّ منزلة الخلق التحويلي الفلكي أعظم بكثيرٍ من منزلة الخلق التحويلي الحيوي . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قادراً على الخلق الفلكي فهو على الحيوي أقدر حيث أنّ البوْن شاسع . فعلى الرّغم من أنّ الخلقين الفلكي والحيوي كليهما من ماء إلاّ أنّ الخلق الحيوي مزدوج التخلّق فبعضه من ماء وبعضه من تراب . وبهذا يكون الخلق الفلكي مقدّم على الحيوي في الزمان والرّتبة وفاضلاً بينما يصبح الأخير مفضولاً عليه . قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين) المؤمنون : ١٢ . أي من خلاصةٍ سُلّت من كدر الطين . ومعنى ذلك أنّ الإنسان خلق من عناصر شتّى : مثل الكربون ، الأكسجين، الهيدروجين، الفسفور، الكبريت، الأزوت، الكالسيوم، البوتاسيوم، الحديد، النّحاس ...إلخ من العناصر التي تتكوّن من الأرض . وهكذا يثبت لنا تفاوت المخلوقات في مدارج الخلق .

(ج) خلق تحويلي حيوي من شيء :

وهذا صنو الخلق الفلكي حيث أنّ كليهما خلق تحويلي منقلب عن شيء آخر سواه . إلاّ أنّ الحيوي يأتي في الرتبة الدنيا بالنسبة لصنوه الآخر، كما رأينا في المباحثة، فالأخير يخصّ الحيوان بينما الخلق الفلكي يختصّ بالموات الذي منه الحيوان أيضاً .

قال تعالى في سورة النّور : (يقلّب الليل والنهار إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار) وتقليب الليل والنهار فيه إشارة إلى كون السموات والأرض لينتقل إلى آية الخلق الحيوي فيقول : (والله خلق كلّ دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء، إنّ الله على كلّ شيء قدير) النور : ٤٥ . وجاء في تفسير الآية أنّ أجناس الحيوان كلّها مخلوقة من هذا الجنس، جنس الماء، وذلك

لأنّه هو الأصل وإن تخللت بينه وبين هذه الأجناس وسائط . أي أنّ الماء هو الأصل وإن لم يخلق بعض الأجناس من الماء مباشرة . ولكنّها خلقت من مواد خلقت من ماء . وقالوا خلق الملائكة من ريحٍ مخلوقة من الماء والجنّ من نار خُلقت منه وآدم من تراب مخلوق من الماء أيضاً . وبهذا تصبح كلّ الأجناس الحية مخلوقة من الماء كثيفها ولطيفها على حدٍّ سواء . يعمي أنّه سبحانه وتعالى خلق كلّ الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء . فكلّ أجناس الخلق التحويلي الحيوي صادرة عن الماء مباشرةً أو عن طريق وسائط، كما أوضحت آنفاً في شرح الآية السابقة .

ومعنى ذلك أنّ هنالك تحويلاً من شيءٍ إلى شيءٍ آخر أكثر تعقيداً وتشكيلاً وفق مشيئة الله سبحانه وتعالى القاهر فوق عباده . فإذا كانت جميع هذه الأجناس الحية صادرة عن الماء معنى ذلك أنّها منقلبة عن مادة الماء الخام الابتدائي إلى صورها البديعة وأشكالها العجيبة وخصائصها المتنوعة . إ هي صنع الله الذي أتقن كلّ شيء وأعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى . فلو قست أقبح وأدمّ وأخسّ وأذلّ شيئاً من صنع الله إلى أجمل وأبدع وأبهى وأرفع شيئاً من صنائع البشر، لوجدت صنع الله شيئاً .

وعن النّبي ε أنّه رأى جبريلاً عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح . ورُوي أنّه ε سأل جبريلاً عليه السلام أن يترآى له غي صورته فغشي على النّبي ε ثمّ أفاق فقال سبحان الله ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا . فقال جبريل عليه السلام فكيف إذا رأيت إسرافيل له اثنتا عشر جناحاً، جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله . (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير) فاطر : ١ .

ويزيد في الخلق ما يشاء من صوتٍ حسن وصورةٍ حسنة، من طول قامةٍ واعتدال صورةٍ وتمامٍ في الأعضاء وقوّةٍ في البطش وحصافةٍ في العقل وجزالةٍ في الرأي وجرأةٍ في القلب، وسماحةٍ في النّفس وذلاقةٍ في اللسان ولباقةٍ في التكلّم وحسن تأنٍّ في مزوالة الأمور .

وما أشبه ذلك ممّا يحيط به الوصف [1]. قال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون) الذاريات : ٢٠ – ٢١ .

وفي أنفسكم في حال ابتدائها وتنقّلها من حالٍ إلى حال وفي وباطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصّت به من أصناف المعاني وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات السّاطعة والبيّنات القاطعة على حكمة المدبّر . ودع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والثني (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وهكذا تتحوّل مادة الماء الخام من صورتها الابتدائية المهينة فتنقلب إلى شيءٍ عجيب آخر حين تصنع هذه المادة على عين الصانع وعنايته . فأين المنقلب عنه إلى المنقلب إليه والمتحوّل عنه من المتحوّل إليه؟ ولكن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فهذه منزلة الغلاف الحيوي في الأرض . وإن شئت أسميتها نشأة الحياة الأولى في المادة الصّماء التي هي مادة التراب المتحوّلة عن الماء أو المادتين المتظاهرتين معاً . وهذا الغلاف الحيوي هو محلّ التكريم إذ هو مهبط الملائكة ومقرّ البشر ودار التكليف والمختبر . قال تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً) الإسراء : ٧٠ .

فإذا كان الغلاف الحيوي هذا مخلوقاً من ماء مباشرةً دون وسيط فهو مخلوق من شيء مخلوق من عدم .

(د) خلق تجميعي تقليدي من أصول :

نعيد ما ذكرناه بأنّ مستويات الخلق تقع على أربع منازل حسب الترتيب التنازلي من الصعب الشّاق إلى البسيط الأهون أي من الأعظم إلى الأحقر :

٥- خلق تأصيلي من لا شيء في درجة (أعظم)

---

[1] الزمخشري : الكشّاف .

٦- خلق تحويلي فلكي من لا شيء في درجة (عظيم)

٧- خلق تحويلي حيوي من شيء في درجة (حقير)

٨- خلق تجميعي تقليدي من أصول في درجة (أحقر)

ويُقصد بالخلق التجميعي إعادة الأموات وتطريتهم بالحياة مرةً أخرى بعد ما فقدوها بحلول مصيبة الموت بأجسادهم . فانتقلوا من ظاهر الأرض إلى باطنها ف اختزنوا فيها إلى يوم الدين (يوم يسمعون الصّيحة بالحق ذلك يوم الخروج، إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير، يوم تُشقّق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) ق : ٤٢ - ٤٤ .

وسيخاطب إسرافيل عليه السلام جماهير العظام البالية وحشود الأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة "إنّ الله يأمركن أن تجتمعنّ لفصل القضاء" . يخاطبهم بشدّة أو بنفخةٍ مروّعةٍ ومفزعة أي يطلق في الموتى صيحةٌ مدوّية بالأمر الإلهيّ القاهر والإرادة الزاجرة (فإذا هم بالسّاهرة) والله على كلّ شيءٍ قدير - إذ القدرة على أداء الشيء أو صعوبة أدائه ناتجان من علاقة الشّيء بالشّيء، كعلاقة الإنسان بالأرض التي تقلّه إذا يتعذّر عليه حملها وهو عليها . وكتفاوت النّاس في حمل ثقل ما بين المقدرة عليه والعجز عنه حسب قواهم تجاه الثقل . ولما كان البارئ، سبحانه وتعالى، سابقاً في الوجود لكلّ شيء، خلا من رباطٍ ماديٍّ فلم يتعلّق به شيء . فلك يكن له كفؤاً أحد لانتفاء الأحد كلياً مكافئاً أو غير مكافئ . وإذا لم يكن إلاّ شيئاً واحداً خالصاً، تعالى الشيء الواحد الخالص أن يلحق به صعوبة لانتفاء مصدر الصعوبة كلية، وإذا لم تكن الصعوبة حلّت القدرة محلّ الصعوبة . فكان الإله الواحد قادراً على كلّ الأشياء لتعلّق قدرته بالمخلوقات فوق تعلّق قدرة المخلوق بالمخلوق . فالصعوبة مصدرها من أنّ الله خلق الأشياء الكثيرة المتنوعة الطبائع أجساماً وأعراضاً، فنشأت الصعوبة في تأليفها أو الحدّ من أسرارها وفي تعاملها بعضها مع بعض . ولكنّه لما كان غير هذا الكون الحادث، مادة الصعوبات ومحلّها، كان منزهاً، بمنأى عن عالم الصّعوبات والإشكالات . وقد وسع كلّ شيءٍ علماً . فالصعوبة من بوابة الخلق منقطعة لا تصعد إليه، وبالعكس تصدر منه إليهم إذ تحيّرت الأوهام في معرفة كنهه ودهشت الفطن (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . فباسم من هذا صفته يخاطب الموتى للإهطاع للفصل في علاقتهم المستعصية السابقة وصلاتهم الماضية بالقسط وفق الميزان

الذي وضع لهم من قبل. فيستجيبون بحمده للأمر القاهر مهطعين إلى الدّاع لا يتخلّف منهم أحد في ورود اليوم العسير .

هذه عقيدة البعث التي ينكرها بعض السفهاء ويثبتها العقلاء في كلّ ملّة ودين أو علم صحيح أو فطرة سليمة .

يقدّر عدد أصحاب الديانات السماوية ٤٩,٦% من سكان العالم حيث يشكّل البعث جزءاً من عقيدتهم بالإضافة لأصحاب بعض الدّيانات المثالية كالكنفوشيوسية الصينية التي تؤمن بإلهٍ واحدٍ وقادر .

فالإيمان بالجزاء ضرورة توازنية لاستقامة الفضيلة . فما بالهم لا يؤمنون بالبعث إن هو إلاّ صورة من صور التجديد للأشياء البالية . إنّ أ:غلب سكان الكرة الأرضية يؤمنون بالبعث لأنّه من مقتضيات الجزاء والعالم الآخر المركوز في الفطرة . وسأل سائل : هل هناك شهادة تجريبية تثبت حياة بعد الموات ؟

إنّ أوّل دليل على الحياة الثانية حياتنا الأولى في حدّ ذاتها . فالذين ينكرون الحياة الثانية يقرّون، بداهةً، الحياة الأولى . والحياة التي ظهرت مرةً واحدة، كيف لا يمكن إعادتها مرةً أخرى؟ هذه التجربة التي نعيشها اليوم، كيف يمكن حدوثها مرةً أخرى؟ ومن حقّ القياس أن يشبّه محلّ الخلاف بمحلّ الوفاق . يعني أنّ الحياتين الأولى والثانية لما كانتا متماثلتين تماماً فلو صدقت إحداهما وكذبت الأخرى لكان ذلك إيقاعاً، للتفرقة بين المثلين المتماثلين في جميع الوجوه، غير جائز وغير لائق بحكمة الله وعلمه المحيط وقدرته المطلقة .

فقبول النشأة الأولى واستبعاد الثانية كقبول الثانية واستبعاد الأولى لما كانتا من دقة المماثلة بمكان أنّه لا يجوز تخصيص أحد المثلين بالإقرار والآخر بالرفّض . وعلى سبيل الفرض لو أُخبر الإنسان قبل أن يُخلق حين أُشهد على نفسه بأنّه سيواجه حياةً أولى يعقبها ممات ثمّ أخرى لا يعقبها الممات، فكيف يجوز البداءة وينكر الإعادة أو العكس مع كونهما في حكم العدمية والغيب إليه سيان؟ لا شيء أكثر عداءاً للمنطق والعقل من أن نسلّم بوقوع حادثٍ في الحال وننكره في قابل الزمن .

واضّطر جميع العلماء الذين حاولوا تفسير أ:مر الكون والحياة بطريقةٍ علمية طبيعيةٍ أن يسلّموا بأنّه لو هُيّئت نفس الأحوال التي ساعدت على خلق الحياة الأولى فمن الممكن

حدوث الحياة ولوازمها مرةً أخرى . إنّ إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى، نظرياً، من إمكان الحياة الأولى، التي وقعت فعلاً . وأيّ شيء نسلّم به أنّه خلق الحياة، مهما كان هذا الخالق، فلابدّ لنا من الإقرار بصفةٍ بديهيةٍ بأنّ ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد إعادة نفس الحوادث التي أنشأها في المرّة الأولى، ولابدّ لنا من الاعتراف، اللهم إلاّ إذا أنكر الحياة الأولى الموجودة الآن .. فنحن نفقد جميع الأسس التي قد تبنى عليها دعائم إنكارنا للحياة الأخرى، عندما نسلّم بوجود الحياة الأولى[٢] .

وأسميت هذا النوع من الخلق خلقاً تجميعياً تقليدياً لأنّه عبارة عن لمّ أطراف كانت ث مّ اخترمها الموت والفناء فوزعتها يد البلى هنا وهناك . فلم الأشكال وتجميعها من هنا وهناك ليس بدعاً في عالمنا المعاصر .

فقد أدّى التخصّص الصناعي إلى نوعٍ من الارتباط والتعاون بين الدول كأن ينهض كلّ قطر بصناعة قطعٍ معينة من الصناعات الهندسية ثمّ تجمع هذه القطع لإخراج الصنعة المطلوبة تامة الصنع كالتعاون الموجود الآن بين دول السوق الأوربية المشتركة أو الصّناعات الإلكترونية اليابانية التي تجمع في ماليزيا أو كوريا أو غيرهما أو كما تقوم الولايات المتحدة الأميركية بصنع أجزاء طائراتها المدنية في الولايات الغربية وبعضها في الولايات الشرقية من البلاد حسب المناخ ثمّ تجمعه . ودأبت بعض الأقطار النامية على استيراد قطع السيّارات وتركيبها داخل البلاد . وهذا التجميع، بالطبع، أهون وأيسر من التقنية الأصلية . وهذا التخليق تقليدي لأنّه عبارة عن تأليف لأصولٍ حيويةٍ سادت ثمّ بادت . وليس ابتداعاً ولا اختراعاً ولا تحويلاً لشيءٍ ما إلى شيءٍ آخر . فهو عبارة عن (الصيانة) التي لا ترقى لدرجة الصناعة .

يصنّف القرآن في معالجة قضايا البعث إلى قسمين : نظريّ ومادي . وهذا القسم الأخير، أي المادي، سيناقش في محلّه أي في موقفٍ آخر[٣] . فها نحن الآن أمام ثلاثة مستويات من القسم الأول من آيات القرآن في تأييد وحتمية الخلق التجميعي :

المستوى الأول :

---

[٢] وحيد الدين خان : الإسلام يتحدّى، دار البحوث العلمية ١٩٨٣م، ص ١٠١ .

[٣] انظر مجلة دراسات دعوية، العدد ٦ لعام ٢٠٠٣م، مركز الدعوة وتنمية المجتمع – جامعة أفريقيا العالمية – الخرطوم .

قال تعالى في ثلاث آياتٍ متشابهة فيها كثير من التوافق :

٤- (وهو الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) الرّوم : ٢٧ .

٥- (أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثمّ يعيده إنّ ذلك على الله يسير) العنكبوت :١٩ .

٦- قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إنّ الله على كلّ قدير) العنكبوت : ٢٠ .

سيؤكّد سبحانه وتعالى في الآية الأولى بأنّ الإعادة أهون عليه من البداءة وفي الثانية أنّه عليه يسير بينما يلوّح في الثالثة بأنّه على كلّ شيءٍ قدير . لا يتعاظمه ولا يُعجزه شيء . فالإعادة الإعادة بالقياس على البداءة أهون وأيسر ولا سيّما أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير . كأنّنا ننصبّ في الأرض صبّاً من هيّنٍ إلى ما لا يكلّف أدنى جهد . لا يحقّ ولا يجوز للإنسان إنكار المعاد بأيّ وجهٍ من الوجوه . فهو لم يكن دائراً في الأرض، مع الزمان، فدار . إذ لم موجوداً ولا مشهوداً قبل مليون عامٍ من الزمان، ثمّ كان، ومن ثمّ بدأت دورته الحيوية في الأرض وفي الزمان معاً .

دورة الإنسان الحيوية في الأرض :

س تنقسم حركة الإنسان في الأرض من جهة الماضي والمستقبل إلى قسمين :

ت- حركته في الزمن من جهة الماضي وتشمل :

٤- ميت ته ما قبل الإماتة الأولى . وهي إماتة معنوية أو مجازية .

٥- إحياءه الأول .

٦- إماتته الأولى .

ث- حركته في الزمن من جهة المستقبل وتشمل :

٧- إحياءه الثاني :

وهو إحياء المعاد لتقرير المصير الكبير والأخير، ويبقى الإنسان حياً لنفسه أو عليها بلا أمد . قال تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ث مّ إليه ترجعون) البقرة : ٢٧ . وقال تعالى على لسان المدحضين : (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل) غافر : ١٠ .

ولقد تحقّقت كلّ هذه المراحل عبر الزمن الطويل ولم يبق إلاّ المرحلة الأخيرة وهي إحياؤه الثاني المنتظر، أي تحقّقت ٧٥% من مراحل دورته الحيوية في الأرض . فكيف إذا يُساغ له دفع ما تبقّى وهو المرحلة الأخيرة فقط من مراحل الدورة ؟ . والجائي كالفائت بل أهون .

هذا وتنقسم حركة الإنكار للمعاد لدى الكفّار إلى تيارين : افتراضي ومثاله (وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمعوثين) وهو غير جديرٍ بالمناقشة لكونه محض افتراء صرف الكتاب النّظر عن الردّ عليه . والآخر نظريّ خليق بالمباحثة والرّد عليه .

نظريات الكفّار في إنكار المعاد :

وتتلخّص في خمسة طعون ضدّ قضية القيامة في القرآن وتمثّل خطبة الاتهام في محاكمة هذه القضية الهامّة التي يترافع فيها، من جانب الدّفاع، قرآن المعاد . والطعون هي :

٦- نظرية : أإذا متنا .

٧- نظرية : أإذا متنا وكنّا تراباً .

٨- نظرية : أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً .

٩- أإذا مُزّقنا كلّ ممزّق .

١٠- نظرية : أإذا ضللنا في الأرض .

هذه الأسئلة لا يسألها، أي لا ينبغي أن يسألها، من يقرّ بوجوده الحالي . فالذي لا يقرّ بوجوده لا يسأل هذه الأسئلة هرباً من إقامة الحجة على نفسه، بسؤاله، على وجوده . ومن ثمّ لا يسأل أسئلةً لا تعنيه البتّة . ولا نتخيّل أن يسألها الذين لم يُخلقوا ولم يُوجدوا بعد، من وراء حُجب الغيب الكثيفة، حيث أنّ الغائبين في ميتتهم ما قبل الموت الأوّل، وراء الحياة الأولى، يعنيهم فقط عمّا إذا كان في الإمكان خروجهم من ظُلمة العدم النّسبي إلى سبحة إلى الوجود الحسّي . أي انتقالهم من الوجود العلمي في كتاب الله تعالى إلى باحة الوجود العام المشهود من قبل الأنام والهوام على الدّوام . ولكن عندما يتحقّق لهم حلم الحياة الأولى بالميلاد يسقط حقّهم في افتعال الأسئلة وصياغة الشروط عن الحياة الثانية . فلا يكرّرون أو يعيدون سؤالهم الماضي أو السّابق، إذ السّؤال قد أُجيب عليه بالموجود .. ولا يسألون عمّا إذا كنّا تراباً أإنّا لفي خلقٍ جديد؟ إذ هو لغوٌ أبطلته أيضاً تجربة الوجود . فإذا لم يعيي خالقهم بالخلق الأول الحقير فلن يعيي بالثاني الأحقر أبداً . وترتقي هذه

النّظريات أو المدارس الموضوعية بإحكامٍ شديد ودقّةٍ متناهيةٍ في مدارج الإعجاز للأسباب التالية :

- بُدئت المدرسة الأولى بالصّعوبة الأولى، صعوبة الموت لأنّه أوّل خطوةٍ جادّةٍ في طريق العدم بنعي الإنسان نفسه للحضور بفساد نيّته وبشدّة فراق الدنيا وشدّة الإقبال على الآخرة .
- وتأتي الصّعوبة الثانية بتمهّد الجسمان بالتحلّل وتحطّم الخلايا بانهيار الكيان الكيان وبتنصّل اللحم عن العظام وتسرّب الرطوبات في التراب .
- وتتمثّل الصّعوبة الثالثة حيث يفنى الجسمان في التراب مفارقاً هيكله العظمي وبذلك يصير تراباً وعظاماً .
- ويقفو هذه الصّعوبات الصّعوبة الرّابعة وتتمثّل في ترمّ العظام والرّفات وتفتّتها وتب عثر الأوصال والأشلاء وتمزّقها كلّ ممزّق . فلا يبقى للإنسان حقيقة مادية أو بقايا متماسكة في أغلب الأحوال .
- وتتوّج هذه الصّعوبات بصعوبة النظرية الخامسة الأخيرة .. نظرية : أإذا ضللنا في الأرض عظاماً حطاماً ورفاتاً دقاقاً، وبتحطّمنا وانتقال أجسادنا إلى أجسامٍ أخرى كالذي يتغذّى منّا، فيتغذّى منه الحيوان ثمّ يموت الحيوان فيتغذّى منه النبات مرةً أخرى ومنها ما يساهم ضن التراب في صّنع العمران ...إلخ .

ويلحق الماء بالماء في الجوّ أو البحر ويلحق كلّ معدنٍ بمعدنه . وهكذا دواليك إلى ما شاء الله تعالى . أو هكذا يضيع الميّت في التّراب، ويذهب مذاهب شتّى، ويغيب في أطباق الثّرى وظلمات الأرض نهباً بيد البلى، فيتوارى ويفنى .

وينبري الكفّار للرّد على طعون الكفّار ومنظماتهم المختلفة في القديم والحديث والمستقبل جميعاً فيقول : (وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً، قل كونوا حجارةً أو حديداً، أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذي فطركم أول مرة) الإسراء : ٥٠- ٥١ . كائناً من كان الذي فطركم أول مرةٍ ولو كان بلبلاً أو جدياً يرعى في خمائل البان .

وإذا كنّا نعلم في هذا العصر أنّ المواد العضوية المكوِّنة لجسومنا الحاوية للحديد، مثلاً، ينفصل عنها صريح الحديد الذي قد يعود إلى حجارةٍ مرةً أخرى . وقد يتحلّل الجسم إلى عناصره من أوكسجين وأيدروجين وكربون ونترموجين وكالسيوم وفسفور . فإنّ في السّياق ما يزال بقية إعجاز لق ابل الأيام وهي قوله : (أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم) يكبر قدرا وخطراً ممّا وصل أو يصل إليه العلم بمرّ العصور وكرّ الدهور . قد يكون ما يكبر في صدور الكافرين في زماننا الذّرّة ومشتقاتها أو الطّاقة الحرارية المتولّدة عن انفجار القنبلة الذّرّية ممّا يستبعد إعادتها مرّةً أخرى إمعاناً في مهامه التضليل ومجاهيل التيه .. إلخ، أي كونوا بروتونات والتكترونات وطاقات فسنعيدكم جميعاً كما كنتم أوّل مرّة .

والمعنى بسيط هو أنّهم لما تحدّوا المولى باستحالة إحيائهم، إذا صاروا عظاماً ورفاتاً، تحدّاهم بأن يتحولوا إلى أقصى ما في جعبتهم من المستصعبات التي يتصوّرون فإنّه قادرٌ على إعادتهم فضلاً عن إحياء العظام، والرّفات بعض الإنسان، ولو كان المتصوّر حجارةً أو حديداً .

ولقد فطن الفخر الرّازي في التفسير إلى أنّ الإنسان عبارة عن ذرّاتٍ دقيقةٍ متفرقةٍ في أنحاء الكون فجمعت فكان منها جُسمان الإنسان . ومهما يتبدّد الجُسمان بالموت مرةً أخرى فلن يستطيع أن ينفذ من أقطار السموات والأرض وحظيرة الكرسي ويجاوز ظاهرة المكان . قال : "فالحاصل أنّ تلك الأجزاء كانت متفرقةً جداً، أولاً في أطراف العالم ثمّ إنّه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان، ثمّ إنّها كانت متفرقةً في أطراف بدن ذلك الحيوان فجمعها الله سبحانه وتعالى في أوعية المني، ثمّ إنّه تعالى أخرجها ماءاً دافقاً إلى قرار الرّحم . فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكوّن منها ذلك الشّخص، فإذا افترقت بالموت مرّةً أخرى فكيف يمتنع عليه جمعها مرّةً أخرى؟" فهذا تقرير هذه الحجّة والله تعالى ذكرها في موضع من كتابه منها سورة الحجّ : (يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب) الحج : ٥ - ٧ .

والحقيقة دأب الفرقان على الرّدّ على جميع هذه المدارس في إنكار المعاد بطرح البداءة دليلاً على الإعادة، وإن لمسنا في آية كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم توسّعاً عظيماً في دائرة القدرة على الإعادة، غير ملحوظٍ في آيات الإعادة الأخرى التي تكتفي بأنّ الفاطر لأول مرة قادر على إعادة الناس (وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً أإنّا

لمبعوثون خلقاً جديداً، قل كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعيدنا، قل الذي فطركم أول مرةٍ، فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو، قل عسى أن يكون قريباً) الإسراء : ٤٩ - ٥١، أي أنذ القرآن يحاجّ للمعاد، الخلق التجميعي، بالحياة الحاضرة، الخلق الحيوي .

وقياس الإعادة على البداءة معناه قياس الخلق التجميعي على الخلق التحويلي . ولما كان الخلق التحويلي الحيوي أو التجميعي بدرجةٍ كان أبلغ في الاستشهاد . ويستحسن أن نصمّم جدولاً يساعد في توضيح الفكرة قبل الاسترسال في الحديث (انظر الجدول) :

المنزلة	نوع الخلق	المقلوب عنه	المقلوب إليه	وجه الإعجاز
أ	التأصيلي	لا شيء	ماء	البروز من العدم
ب	التحويلي الفلكي	ماء	أجرام السموات والأرض	الفخامة والجسامة والوسع العملاق
ج	التحويلي الحيوي	تراب	حياة	نشأة الحياة في الجماد
د	التجميعي	أصول الأموات (رفات أي خردة)	حياة معاد	تجميع الأوصال المفرقة وإعادتها للحياة بعد استراحة الموت

جدول يوضّح منازل الخلق في القرآن الكركيم

المستوى الثاني :

أمّا المستوى الثّاني من الآيات فردّه سبحانه وتعالى على منكري البعث :

٣- قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكن أكثر النّاس لا يعلمون) غافر : ٥٧ . أي له المثل الأعلى، في الخلق، في خلق السموات والأرض .

٤- وقال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) الرّوم : ٢٥ .

في هاتين الآي تين يقيس سبحانه وتعالى المبعث على شيءٍ أجلّ ممّا قاس عليه المرّة الفائتة وهو خلق السموات والأرض . لأنّ خلق السموات والأرض وقيامهما بأمره أي خلقه لهما أيضاً من آياته . فإنّ ابتداء خلق السموات والأرض بتقدير (عظيم) لأرفع شأناً من الخلق

الإنساني الذي هو في منزلة (حقير) . معنى ذلك أنّ خلق هؤلاء الأجرام العظام يعلو خلق الإنسان درجةً ويعلو إعادته بعد مماته درجتين . بمعنى أنّ الخلق التحويلي الفلكي يعلو الخلق التحويلي الحيوي درجةً ويعلو الخلق التجميعي درجتين كما هو مبيّن في الجدول والشكل جميعاً .

المستوى الثالث :

أي الثالث من القسم الأول من الآيات، فكقوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكلّ خلقٍ عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم) يس ١٧٨ – ٨١.

وتتلخص هذه الآيات في المستويات التالية :

٤- إحياء العظام، وهو خلق تجميعي قياسي على الإنشاء الأول أي الحيوي . وكذلك إحياء العظام يسند إلى انقدلاح النار في الشجر الأخضر، وهو أثر من آث ار الخلق التحويلي الحيوي . وهذا الدليل هو عين الدليل الوارد في المستوى الأول .

٥- خلق السموات والأرض وهو خلق فلكي يسند إليه المعاد وهذا أيضاً عين الدليل الوارد في المستوى الثاني الذي سبق إيراده .

٦- كونه تعالى خلاّقاً فوق الخالق ويندرج تحته الخلق التأصيلي، بمعنى أنّ السياق بدأ يترقي في الدليل إلى أن وصل إلى إ:سناد المعاد إلى الخق التأصيلي وهو ذروة القدرة وسنامها، كما تقرّر في الشكل والجدول السابقين، وهذا هو المستوى الثالث من القسم النظري من أدّلة المعاد في القرآن .

ومن ثمّ فلا حجّة صحيحة لمنكري البعث، لأنّ القادر على الحقير أقدر على الأحقر ولابد . ولكن للمتقدمين وللمشتبهين شبهة حول حشر الأجساد عما إن كان كلذ واحد سيحشر بجسده الذي كان عليه في الدنيا أو عند الموت لكي يقع الجزاء بعده على البدن الذي اقترن بالأعمال . وتقرير هذا الإيراد أنّ هذه الأجساد مركبة من العناصر المؤلفة منها مادة الكون كلّه وهي مشتركة يعرض لها التحليل والتركيب فتدخل طائفة منها في عدّة أبدانٍ على التعقب . فمن الإنسان والحيوان ما تأكله الحيتان أو الوحوش ومنها ما يحرق

فيذهب بعضه في الهواء فيتصل كلّ بخاري أو غازي منه بجنسه كبخار الماء وعنصريه والكربون . وينحلّ ما يُدفن في الأرض فيها ثمّ يتغذّى النبات الذي يأكله الناس بعناصر الإنسان المحلوة في الأرض . وقد تأكل الأنعام من هذا النبات الذي تتغذّى منه أجساد العب اد ثمّ يأكل الإنسان من الأنعام . فلا يخلص لشخصس معيّن جسد خاص به . بل ثبت أنّ الأجساد الحية تنحلّ وتندثر بالتدريج وقلّما انحلّ بعضها بالتبخّر . وتموت بعض الخلايا فيحلّ محلّ:ها غيرها بسبب الغذا بحسب سنن الذي أحسن كلّ شيءٍ خلقه . فلا تمرّ بضع سنين على جسدٍ إلاّ ويتم اندثاره وتجدّده . فكيف يمكن أن يقال أنّ كلّ إنسانس وحيوانٍ يُحشر بجسده الذي كان في الدنيا ؟

وأجاب بعض العلماء عن هذا بأنّ للجسد اجزاء أصلية وأخرى فضلية . الذي يُعاد بعينه هو الأصلي دون الفضلي . وجعل بعضهم الأصلي عبارة ععن ذرّاتٍ صغيرة كعجب الذنب الذي ورد أنّه كحبة خردل بل جوّز أن تكون هي التي ورد أنّ الله تعالى أودعها في صلب آدم أبي البشر بصورة الذّرّ كما رخوى في تفسير قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى) . ويقول رشيد رضا : "وقد بينّا في غير هذا الموضع أنّ التزام القول بوجوب حشر الأجساد التي كنت لكلّ حيٍّ بأعيانها لأجل وقوع الجزاء عليها غير لازمٍ لتحقيق العدل . فجميع قضاة العالم في هذا العصر يعتقدون أنّ أبدان البشر تجدّد في سنين قليلة ولا يوجد أحد منهم ولا من غيرهم من العقلاء يقول إنّ العقاب يسقط عن الجاني بانحلال أجزاء بدنه التي زاول بها الجناية وتبدل غيرها بها . فما لم يكن ععندنا نصّ صريح من القرآن أو الحديث المتواتر على بعث الأجساد بأعيانها فما نحن بملزمين قبول الإيراد وتكلّف دفعه، فإنّ حقيقة الإنسان لا تتغيّر بهذا التبدّل فقد تبدّلت أجسادنا مراراص مولم تتبدّل حقيقتنا ولا مداركنا، ولا تأثير الأعمال التي زاولناهها قبل التبدّل في أنفسنا بل لم يكن هذا التبدّل حإلاّ كتبدّل الثياب كما بيّناه من قبل ..." .

لقد قُدّمت أبحاث كثكيرة عن حقيقة الإنسان المكوّنة من النفس والبدن وتكلّموا عن البدن ما هو وعن النفس ما هي ولا سيما أبحاث علم النفس . وتصبح دراسة الإنسان مشتركة بين علم النفس وعلم الحياة في الغالب . والديث بهذه المثابة عن الإنسان قديم تناولته كلّ

الحضارات عالقديمة من اليونانية إلى الإسلام . وكلّ ذلك يرجّحح الظنّ أنّ النفس مستقلة بذاتها ولا تعلّق حقيق لها بالبدن إلاّ مؤقتاً . وإذاا كان كذلك وجب ألاّ تموت بموت البدون إطلاقاً . ولقد تكلّم الفخر الذاتي في هذه المسألة كلاماص وافياً وتبعه نظام الدين النسيابوري في تفسيره ناقلاً عن الرازي الشيء الكثير .

ويذكر أنّ الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية حيث أنّ أجزاء هذه البنية في الذوبان والانحلال والتبدّل بدنما الإنسان المخصوص شيء باقٍ من أول العمر إلى نهايته والباقي مغاير للمتبدّل ولا شك . ومن مظاهر التبدّل والتحوّل صيرورة الإنسان في السمن مرةً وفي الهزال مرةً أخرى وشعي٠ف الجثّة ثمّ قويها . ويجد كلّ إنسانٍ من نفسه أنّه شيء واحد طوال مراحل العمر المختلفة . وقد يكون الإنسان عالماً بنفحسه حالماً يكون غافلاً عن جميع أعضائه وأجزائه كما ف حالة النوم . ففي النوم يضعف البدن وتقوى النفس فنشاهد الأحوال ونطّلع على المغيبات ونقوش عا لم الأراوح . وإذا كان ضعف البدن ينشّط قوى النفس، معنى ذلك أنّ ضعف البدن لا يوجب ضعف النفس أبداً ممّا يقوي الظنّ أنذ موت البدن لا يستعقب موت النفس . فما كان من كمال النفس كان من نقصان البدن . وهذا يطؤكد أنّ النفس لا تموت بموت البدن . وأنّ أحوال عالنفس على ضدّ أحوال البدن . ويلاحظ في الحياة نفور الإنسان من دواعي الجسد عندما يتعرّض لبععض المسرّات والساعدات النفسانية كالبشارة السارة الطارئة . فالوجود النفسي المغاير للبدن المحسوس لا يبعد أن ينفصل بعد موت البدن حياً يستشرف عذاب القبر أو نعيمه .

ويجد كلّمنّا أحوال النفس من الغضب والفرح غير أحوال البدن تماماً . فقوّة أحدهما تقتضي ضعف الآخر ولابد . وللس ادة المتصوفة أحاب الكشوفات والإشارات مذاهب في هذا المجال . يقولون أنّ النفس إذا أعرضت عن الطعام والشراب أقبلت على مطالعة العا لم العلوي، وزادت سروراً وابتهاجاً ووفرحاً وارتياحاً وحبوراً وانطبعت فيها الإمارات القدسية وانكشفت لها المعارف الإلهية .

والظاهر أنّ النفس تبقى متعلقةٍ ببدنها لا كما كان جهازاص يحرّك دولاب البدن ويدبر الأفعال . تبقى متعلقةً بالبدن بتعاطي اللذة أو الألم وتمثلها . و يكفي أن يكون الميت مدركاً للذة الغير أو ألحمنه إلى قيام القيامة الكبرى . وهذا القدر لا ينافي كون البدن

مشاهداً م غير حركةٍ ولا إحساسٍ ولا نطق . ويؤيّده ما روي عن النبي ε أنّه وقف ععلى نقليب بدرٍ وقال : "ي افلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً فإنّ:ي وجدت حما وعدني الله حقاً؟ فقال عمر : يا رسول الله كيف تكلّم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنّهم لا يستطيعوا أن يردّوا شيئاً" . وفي حديث القبر : "إنّه ليسمع قرع نعالهم" . وقال عالنيسابوري : "لعل السرّ في أنّه اكتفى بهذا القدر من التصرّف أنّه إن كان أكثر من ذلك كما سيكون في القيامة الكبرى نافى تكليف سائر الأحياء وأفضى الأمر إلى الإلجاء، وهو السرّ في آخر حديث القبر : "فيصيح صيحةً يدسمعها من يليه غير الثقلين" . والنيسابوري يعني أنّ الخلائق لو اطلعت على أحوال الموتى لأكثر من هذا لأدّى ذلك لإيمان الخلائق قسراً وجبراً وبطلت قيمة الإيمان بالغيب بصيرورة الخمستور مشاهداً ومبصوراً .

واحتجّ الذين يرون بقاء أجساد الشهداء في القبور وأنّها لا تبلى تحت الأرض بما روي أنّه لما أراد معاوية إجراء العين على قبور الشهداء أمر بأن يُنادى : من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع، قال –جابر فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان، فأصابت المسحاة إصبع رجلٍ منهم فقطرت دماً . والله أكعلم بأسرار المخلوقات .

إذاً فمسألة الموت والحياة مسألة نسبية، بمعنى أنّها صعبة مستعصية لدى طرف، سهلة متيسرة لدى طرفٍ آخر، بعيدةٍ عن علم الإنسان وإدراكاته، قريبةٍ من علم الله سبحانه وتعالى، لأنّ الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها . وبداهة العقل تحككم بموت البدن وبعثه في اليوم والليلة عدة مرات .

هذا، ويمكن تلخيص ظاهرة النفس والبدن في المسائل التالية :

المسألة الأولى :

يبدو أنذ ظاهرة الموت متعلقة بالبدن فقط دون النفس، جذلك أنّ أبداننا تموت وتحيا وتتجدّد الخلايا باستمرار طوعال فترة الحياة الدنيا، غير أنّنا لم نعهد لأنفسنا وحقيقتها الإنسانية تحوّلاً يّذكر أو موتاً أبداً سواء في المنام أو في اليقظة . فالنفس لا تغيب بسبب النوم أو اليقظة ولكنها تتأثّر بهذه الأعراض قوةً أو ضعفاً فقط . بمعنى أنّها تتقوى عند النوم وتضعف عند اليقظة مثلاً . لكنها في يقظقس وحياةٍ على الدوام .

المسألة الثانية :

فإذا كانت النفس لا ي تعلّق بها الموت أو أنّها تموت ثمّ يحيها الله على الخفور، ومعنى ذلك أنّها قائمة على الدوام، والقائم الدائم يستحيل في حقه القيام . وإذا كان الأمر كذلك فالشطر الجسماني فقط من الإنسان المتعلّق به أبحاث القيامة عندنا ولأنذ بحث هذا الجانب هو المستطاع والمقدور عليه .

المسألة الثالثة :

يمكن أن يُفسّر إخراج أبدان شهداء أُحد رطاباً من التراب بعد الزمان الطويل بالقول أنّ أحوالاً بيئية معينةً توافرت فعملت على سلامة هيئات الأبدان في هذه الواقعة بتكوين الله.

وذلك إمارة على إمكان إعادة السلامة يوم القيامة لسائر الأبدان الفاقدة لسلامتها البدنية بتوافر أحوال بيئية معينة، حيث أنّ اجتماع الأحوال البيئية المعينةقد أدّى في الماضي إلى نشأة الحياة الأولى نفسها وبروزها وقيام آدم عليه السلام من مشيج الماء والتراب، بشراً من صلصالٍ من حمأٍ مسنون . ولعلذ عجوب الذنب تبقى نوىً حيةً بعد الموت في سائر المكلفين حيث يبرز منها البشر يوم القيامة .

إنشاء العظام لأول مرة :

وهذا هو الخلق الأول وبدء الحياة وهو مأسميته الخلق التحويلي الحيوي وهو ظاهر ماثل للعيان . إذ كلّ حيٍّ قائم بالحياة وكلّ حياتةٍ قائم بها حيّ ودرجته (حقير) كما هو في الشكل (١) . والإحيعاة الأولى هذه غالبغاً ما يحاجّ بها الإحياة الآخرة لتماثلهما في وجوه وإن كانت الأولى معجزة، و (موضة) عند ظهورها قبل أرعة بلايين سنة يباهى بها كوكب الأرض سائر الكواكب ويفاخر . فالأولى معجزة أكبر من الثانية لأنّها على غير مثالٍ سابقٍ زلا تجربنةس حيوية مستفادةٍ منق بل .

انقداح النار من الشجر الأخضر :

قيل هو شجر المرخ والعفار أو كلّ شجرٍإلاّ العناب . وتوقدون ي عني تقدحون وهو دالّ على القدرة على البعث . فإنّه جميع فيه بين أضاد، جميع فيع بين الماء والنار والخشب، لا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب . وبهذه المثابة فالانقداح يُعدّضرباً من الصناعة يدلّ على أنّ وراء الخاصية مشيئة سنية .

وهو، . أي الانقداح . جزء من خلق النبات ويُعدّ بعض خصائص الخلق التحويلي الحيوي . وينظم في درجةٍ حقيرةٍ ليكون أقوى ويكون الفارق أظهر عند المحاجة على الإعادة . وعملية الفرك هذه لإيقاد النار معروفة عندنا ولا سيّما البدو والريف . كنّا نطفئ النيران القديمة ونوقد نيراناً جديدة بمناسبة العام الهجري الجديد . ولكنّنا نحصل على النار بفرك عودٍ يابسٍ على لوحٍ يابسٍ من الخشب ومن شجرٍ مخصوصٍ يُقال له (القفل) في غرب القطر السّوداني . وهذه النار عبارة عن طاقةٍ متولّدةٍ عن الاحتكاك . أمّا انقداح النار بين عودين أخضرين يقطران ماءاً فهذا أعجب .

خلق السموات والأرض :

وهو الخلق التحويلي الفلكي العملاق كما مرّ بنا في آية غافرٍ والرّوم . ف المشركون مقرّون بأنّ السموات والأرض مخلوقة لله تعالى . وهي خلائق عظيمة . لا يقادر قدرها وخلق الناس بالقي اس إليها شيء حقير . وإذا كان ابتدجاء خلق السموات والأرض داخلاً تحت القدرة وهو خلق عظيم . فابتداء خلق الحقير . أي الناس . أدخل تحتها وإعادتهم أدخل من ابتدائهم . فالإعادة أولى أن تكون مقدوراً عليها، ممّا اعترفوا به من خلق السموات والأرض بدرجتين كما جاء في الشكل .

وبهذه المثابة فإنّ الآيات الأخيرة من سورة يس جامعة لكلّ منازل الخلق وصالحة للإفادة على جنس ما هو مخلوق أو سيخلق لاحقاً، والإحاطة بكلّ منازل الخلق في القرآن . وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ . ويأتي اختراع الماء من العدم في ذوة الخلق ومنزلته في قمة المنازل والرتب زتقديره (أعظم) كما جاء بالشكل . فهو خلق أعظم حقاً لم يتقدمه خلق. خلق جليل وبديع يدقّ عن التصوّر ويربك العقول ويبعث على الحيرة والذهول .

وبهذا يعلو الماء على إحياء العظام الرميم ثلاث درجات . إذ هو في سنام الخلق ومنزلته في قمة المنازل . لا يسيل إليها السيل ولا يرقى عليها الطير . فأين الخلق التقليدي من الإبداعي التأصيلي ؟ أو كما قال الأعشى :

ما يجعل الجد الظنون الذي جنب صوب اللجب الماطر

مثل الفراتي إذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر

شتّان ما بين جد (بئر) في الصحراء يظنّ الماء به ظنّاً وبين نهر الفرات وافر الماء وافي الري، قوي الموج إذا ما طما .. رمى .

قال هيكل Haeckel عالم البيولوجيا الشهير : "ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان" .

يقول الأستاذ كريسي موريس في الردّ علخيه : " إنّ هيكل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فإنّ أول شيءٍ سيحتاج إليهه عند خلق الإنسان، هو الذّرّات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ث مّ يخلق الجينات، أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذّرّات، حتى يعطي ها ثوب الحياة .. ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كلّ هذا، لا يعدو واحداً على عدة بلايين، ولو افترضنا (هيكلاً) نجح في محاولته، فإنّه لن يسميها مصادفة، بل سوف يقرّرها، ويعدّها نتيجة لعبقريته .

يريد هيكل أن يخلط بين الأشياء فيحولها إلى مخلوقٍ حيويٍ (حقير) . والردّ البسيط على الخزعبلة الهيكلية : أن يأتيني هو بالماء مخترعاً من عنده من العدم، وبالماء فقط .. وسأخلق له إنساناً عالماً وكافراص وكذّاباً مثله، خلقاص حيوياً وتحويلياً في درجة (حقير) . فتباً لك يا هيكل وتب!! أكفرت بالذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ سوّاك رجلاً يا عالم الحياة ؟! وإذا خلقك من ترابٍ فقد كنت معدوماً فأوجدك . وإذا خلقك من نطفةٍ فقد كنت ميتاً فأحياك . وإذا سوّاك رجلاً فقد كنت جنيناً فرباك وعاجزاً فأمكنك وأقدرك وجاهلاً فعلّمك وصامتاً فأنطقك، وعائلاً فأغناك . ولكن لما جحدت غاية الإحسان إليك فأضلّكولعنك وأبعدك وطردك .

ولنختم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكي جورج إبرل ديفيس :"لو كان يمكن للكون خلق نفسه، فإنّ معنى ذلك أن يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحالة سنضطر أن نؤمن بأنّ الكون هو الإله .

وهذا البحث محاولة لتنظيم وتقنين ظاهرة الخلق في القرآن ووضع الأسس والقواعد العلمية الحاكمة في تصنيف جميع المخلوقات، أعظمها وأحقرها وما كان منها وما سيكون . وتبيان مصادرها وأصولها وضبط خصائصها وارتباطاتها ومنازلها المقررة لها في سلم القدرة السنية .

يسعى البحث لإثبات المعاد الذي سيكون وتوكيده، والذي لا يتوطن إلاّ الوطن (الأحقر) والمنزل القمئمن منازل الخلق في البهي، تحريراً للاعتقاد ودحضاً للعناد .

ونخلص إلى أنّ القرآن المعادي ينقسم إلى قسمين :

ـ نظري

ـ مادي

وينقسم النظري إلى :

١ـذاتي أيدليله ذات الشيء .. وينقسم إلى لازمٍ ومتعد .

٢ـخارجي أي دليله خارج ذات الشيء ويأتي على ثلاثة مستويات (انظر الشكل ٢) .

٣ـ أمّا الذاتي : فهو اعتبار تصريح القرآن بالمعاد حقاً وحجةً ملزمةص لجميع الأطراف المعنية، بمعنى أن القرآن كلام الله وأنّ كلامه لا يكون . بداهةً . إلاّ حقاص وصدقاً وصحيحاً وصواباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميد .

ومن ثمّ ليس هناك من ضورةس تلجئ القرآن لتبني أساليب المنطق المختلفة أو المعادلات الرياضية والقرائن المتماثلة لأطراف القضايا المتشابهة أو الجنوح إلى الدلة المادية الصلبة الماثلة امام الناس من خلقهم وخلق السموات والأرض ..إلخ. فمجرد التصريح بحكمٍ من الأحكام أو التقرير على قضية من القضايا في القرآن يتعبر كافياً في حدّ ذاته لكون القرآم معجزةً سالبة للمعارضة صارفة .

ومن أمثلة هذا القسم من الآيات الذاتية المعادية اللازمة قوله تعالى في مفتتح سورة (القارعة القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة) سورة القارعة : ١ـ٢. ومثال المتعدي قوله تعالى في سورة التغابن : (زعم الذي ن كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثنّ ثمّ لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير) التغابن : .

حيث تعدّى السياق بالتوكيد البياني للدلالة على الجد . في قوله (وربي) هو قسم وفي (لتبثنّ) و (لتبؤنّ) المؤكدين باللام والنون . ويبدو أنّ السياق قد اكتفى بالدعوى فقط .

٤ـ أمّا القسم النظري الخارجي فيتي على ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : ويعالج قضية المعاد قياساص على النشأة القائمة . أي على الخلق.

المستوى الثاني : ويعالج قضية المعاد قياساً على الخق الفلكي .

المستوى الثالث : ويعالج قضية المعاد بإسنادها إلى الخلق التأصيلي الصادر عن لا شيء كما مر بنا . وأطلق على هذا القسم مصطلح (خارجي) لأنّ مستلزمات القضية وبراهينها مستوردة م وراء الحدود، وليست محليةص محضة كما تقرّر في البحث . إي خطا القرآن خطوةً في الإثبات فلجأ إلى إبراد قضايا مشابهة أخرى لدعم قضية المعاد كما رأينا .

وأخيراً يرتقي القرآن المعادي في مسار الدلة فيطرق أبواب المادة التي يقرّ بها الجميع وحتى السّذج والمجانين، دواب البحر ووحوش البر، كلّ يستشعر ذلك بالغريزة أو الفطرة ويعيش وفق الواقع . وحتى لا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل .

وهذا القسم المتعلّق بالمعاد فهو القسم المادي الذي يصوّر المعاد تصويراً بيئياً حياص وصادقاً ممثلاً في ظاهرة إحياء الأرض الأول ثمّ إحياء الأرض بعد موتها في بعديها الزماني والمكاني علاوة على إماتة الأرض بعد حياتها (انظر الشكل ٢) .

ولتقرير هذه الظاهرة سيخطو التصوير البيئي للمعاد خطواتٍ في البحث ليؤكّد أن ليس المعاد إلاّ بعداً عادياً وطبيعياً من أبعاد الإماتة والإحياء المتمثلة في الدورة الحيوية للأرض في القرآن .

وقد بحُثت هذه الدورة ليتكامل القرآن المعادي ويلتئم ويتقرّر حجم المعاد منسائر أحجامالخلق . (انظر مجلة دراسات دعوية، العدد السّادس، يوليو ٢٠٠٣م) .